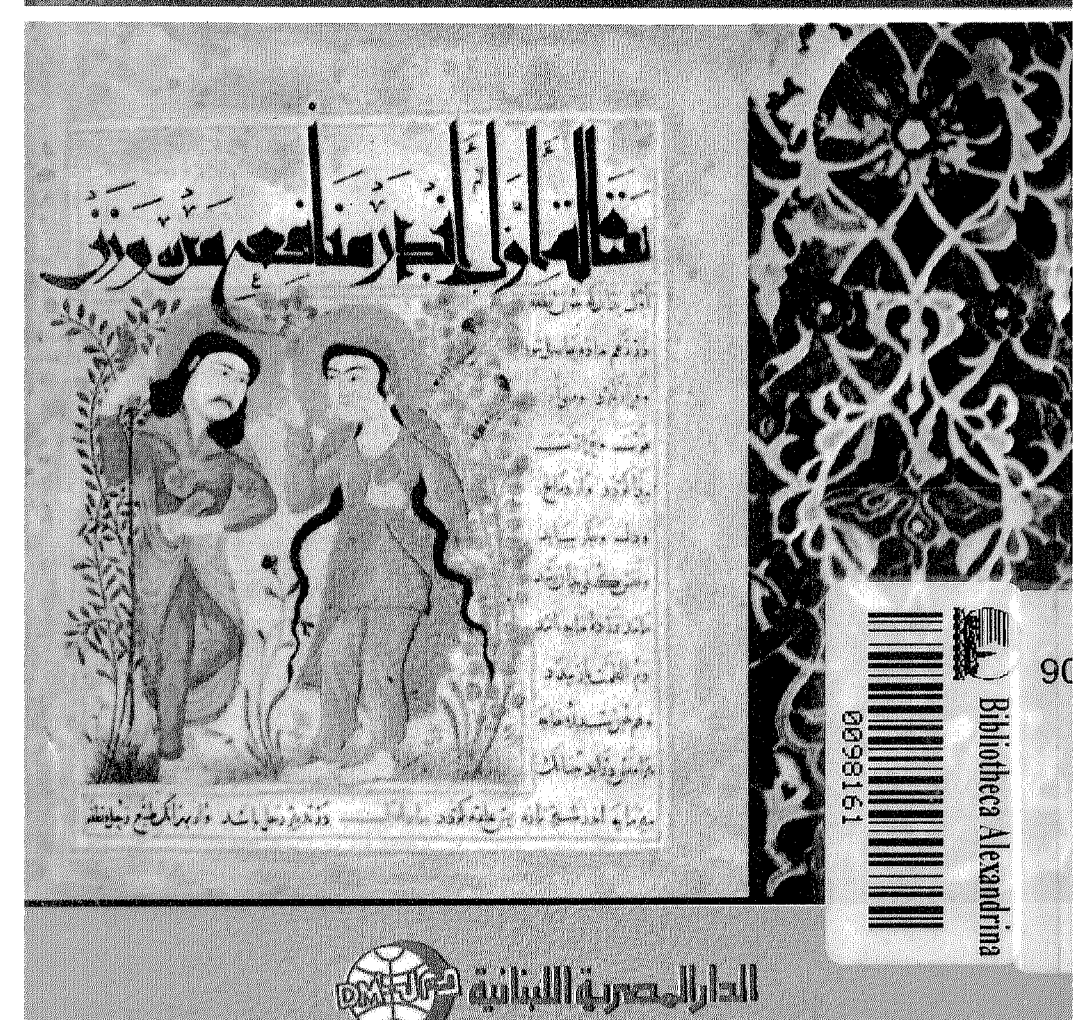
عبد التواب يوسف

الحضارة الإسلامية بأقلام غربية وعربية



الدار المصرية اللبنانية



Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الحَضَارَةُ الإسْلَامِيَّة

آراء غَرْبِيَّة وعَرَبِيَّة

الناشر : **الدار المصرية اللبنانية**

١٦ ش عبد الخالق ثروت ـ القاهرة

تليفون : ٣٩٢٣٥٢٥ ـ ٣٩٣٦٧٤٣

فاكس : ٣٩٠٩٦١٨ ـ برقياً : دار شادو

ص . ب : ٢٠٢٢ ـ القاهرة

رقم الإيداع: ٩٣/٧٢٢٩

الترقيم الدولى: 977 - 270 - 093 - x

تجهيزات فنية : **آر ـ تك**

العنوان: ٤ ش بنى كعب ـ متفرع من ش السودان

الكيت كات ـ إمبابة . . ت: ٣١٤٣٦٣٢

طبع: **المطبعة الفنية**

العنوان: ٢٢ ش الشقفاتية متفرع من الساحة - عابدين

تليفون: ٣٩١١٨٦٢

الطبعة الأولى: ١٤١٤ هـ ـ ١٩٩٤م

الطبعة الثانيـة: ١٤١٦ هـ ـ ١٩٩٦م

تصميم الغلاف: **محمد قطب**

الحضارة الإسلامية

بأقلام غربية وعربية



عبد التواب يوسف

الناشر

الدار المصرية اللبنانية



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

يتعرض الإسلام والمسلمون إلى هجمة شرسة ليس لنا من رد عليها وعلى الافتراءات التى توجه إليه وإليهم غير أن نحدثهم عن حضارتنا.. وكثير مما نقوله بأقلامهم، وليس من عندنا، لكنهم يريدون منا أن نفقد الثقة فى أنفسنا، ولن يحدث ذلك بإذن الله، وسيبقى دينه فى الأرض إلى قيام الساعة.. إنهم يحاولون أن يرهبونا بالعدوان والظلم، فى الوقت الذى هم يرهبون فيه دخول مواطنيهم فى الإسلام، وانتشاره فى بقاع الأرض، مما يؤرقهم ويفزعهم..

ليس لنا من كلمة إلا أننا قد صنعنا حضارات قديمة فى مصر، هى حضارة الفراعنة، وفى الشام وهى حضارة الفينيقيين، وفى العراق وهى حضارة بابل وآشور، وفى اليمن، بحضارة مأرب وسبأ، ونحن مؤهلون بإذن الله لصناعة حضارة المستقبل، بعد أن تسقط ماديتهم الظالمة الجائرة..

وهذه الصفحات تقدم الدليل على ذلك،

عبد التواب يوسف



الإعجاز العلمى فى الإسلام - القرآن الكريم

«الإعجاز العلمى فى الإسلام» كتابان: واحد منهما يتناول القرآن الكريم، والثانى يعرض للسنة النبوية الشريفة.. والكتابان من تأليف: أ. محمد كامل عبد الصمد، وقد احتشدا بمادة علمية وفيرة، وطُبِعا طباعة أنيقة مشوقة..

فى الكتاب الأول يستعرض المؤلف صورا من الإعجاز العلمى فى القرآن فى ثلاثة وعشرين فصلا فى مستهلها يتساءل: ما المعجزة؟ السيوطى يراها أمرا خارقا للعادة، وابن خلدون يقول: إنها أفعال يعجز البشر عن مثلها، وتتجاوز قدراتهم، ويشرح لنا بعد ذلك عنوان الكتاب، ويبين أن أوجه الإعجاز فى القرآن الكريم كثيرة ومتنوعة، ويؤكد أن الحقيقة العلمية لا تتعارض مع الحقيقة القرآنية، ثم أوضح أثر القرآن فى تطوير مبادئ البحث العلمى وكشف عن تلك المبادئ فى كتابه، وهو يؤكد أن القرآن مرجع أزلى للحقائق العلمية الحديثة، ويبدأ فى الحديث عن كل علم على حدة كما جاء فى القرآن..

فى البداية يتكلم عن الفلك، ويتوقف عند الشمس وما ورد بشأنها، ثم سر القسم بمواقع النجوم، ويشرح كلمة «السماء» بمعناها العلمى، ويشير للصعود إلى القمر، ويورد الآية الكريمة **﴿يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السماوات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان﴾**.. التفسير للآيات علميا يحمل قدرا كبيرا من أمور كشفت بعد نزول القرآن بسنوات. إن المؤلف يلفت أنظارنا إلى الكثير: مدارات الكواكب السيارة، سر النجم الذى هوى، الغلاف الجوى والمائى فى الكواكب الأخرى، بل يصل بنا إلى النسبية مشيرا إلى قوله تعالى **﴿وإن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون﴾** وحين يتطرق الكاتب إلى علم طبقات الأرض والجيولوجيا يعرض لكروية الأرض (والأرض بعد ذلك دحاها).. ويحدثنا عن اختلاف التربة، وتفجر المياه من الحجارة، وغير ذلك من ظواهر عرفها الإنسان بعد نزول القرآن بألف عام.

إن كتاب الإعجاز العلمى فى الإسلام (القرآن الكريم) حافل بالحديث عن العلوم الحديثة رابطاً إياها بكتاب الله، وهو حين يتكلم فى علم الجغرافيا يجد فى القرآن تلازما بين السحب والمطر والرياح، بل ويجد تحديدا للسنة الشمسية والقمرية.. وفى مجال الزراعة والنباتات تبهرنا آيات بينات تحمل معجزات مذهلة، وتجلى قدرة الله سبحانه وتعالى فى الإنبات **﴿وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء إهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج﴾** صدق الله العظيم. أما

علم الحيوان فنجده يطابق القرآن، فالأنعام آية من آيات الله فى خلقه، وكأنما القرآن الكريم قد حفزنا إلى ابتكار علم الحيوان، بل والطب البيطرى أيضا.. وعالم الحشرات حافل بالكثير، والدراسات الحديثة استفادت مما ورد عنها، وإشارة الآية الكريمة للعنكبوت (اتخذت بيتا) معجزة حقيقية؛ إذ أن أنثاه هى التى تقوم ببناء بيوت العناكب.. ووصف القرآن العسل النحل بأن فيه شفاء للناس حقيقة علمية، وحين يعرض لعلم الحياة لابد أن تستوقفنا معجزة الماء، وأن منه كل شيء حى، ويكفى أن ٨٥٪ من جسم الإنسان من الماء، ويشير إلى أن قدرا معينا من الماء لابد أن يمتصه الجسم وأن يحتفظ به، فيما يتخلص مما لا حاجة به إليه، وأضاف القرآن الكريم الكثير إلى علوم الطب، وكشف الكثير فى مجالات الوراثة، والأجنة، والتشريح، وإلى علم الصحة الغذائية، وعلم الطب الوقائى، مما فصله الكتاب فى باب كامل شامل يضم خمسة فصول وافية ضافية حافلة بكل معجز..

يشير «كتاب الإعجاز العلمى فى الإسلام ـ القرآن الكريم» الذى وضعه أ. محمد كامل عبد الصمد ـ إلى بعض الحقائق المذهلة.. كلنا يعرف أن القرآن الكريم يقول بأن الإنسان خلق من تراب أو طين أو صلصال، ورد هذا فى عدة آيات بينات، وقد ثبت علميا أن جسم الإنسان يحوى من العناصر ما تحتويه الأرض من كربون، وأكسچين.. وأيدروچين، وفسفور، وكبريت، وآزوت، وكالسيوم، وبوتاسيوم، وصوديوم، ومغنسيوم، وكلور، وحديد، ومنجنيز، ونحاس، ويود،

وفلورين، وكوبالت.. وسلكون، وزنك، وألمونيوم.. إنها نفس العناصر المكونة للتراب وإن اختلفت نسبتها من إنسان إلى آخر.. ويلفت الكتاب نظرنا إلى قدرة الله على تسوية بنان الإنسان، وفى هذا إشارة إلى بصمات الأصابع التى تقرر الحقيقة العلمية المؤكدة أنها لا تتماثل فى إصبع مع إصبع آخر، ولو كانا فى يد واحدة. إنها معجزة أحدثت انقلابا فى البحوث الجنائية، وأثبت العلم الحديث خطورة عدم رضاعة الطفل من أمه، ونبهنا القرآن الكريم إلى هذا قبل قرون.. ووضع لنا منهجا غذائيا فى منتهى الروعة والحكمة (وكلوا واشربوا ولا تسرفوا).. إن ذلك هو قانون المحافظة على الصحة والسلامة، وعلم البكترويولوجى يقرر ضرورة تحريم أكل الميتة والدم، وقد ورد تحريمها فى محكم الآيات.. كما أمرنا سبحانه وتعالى بالامتناع عن شرب الخمر، والعلم ينهانا عنها اليوم بعد قرون من تحريم الله لها.. ألا ندرك أهمية ذلك وخطورته؟ وقد عرف الإنسان مؤخرا مرض فقد المناعة، الذى سمى بالإيدز.. ويجب أن يعترف الجميع بأن القرآن الكريم قد أشار إلى ذلك فى آياته، وحذر منه قبل أربعة عشر قرنا.. أليس ذلك إعجازا؟

كثيرة هى الكتب التى تتحدث عن معجزة القرآن، وما ورد فيه من معجزات.. لكن الكتاب الذى بين أيدينا جامع شامل. ومن الواضح أن صاحبه قد جمع بين الحسنيين: دراسة القرآن ودراسة العلم.. والبعض يقول إن القرآن كتاب إلهى، وليس كتاب علم، لكن الاجتهادات تقول لنا إن العلم وارد فى كتاب الله، وإن تجارب المعامل يوما بعد يوم

تؤكد لنا روعة ما ورد من آيات تحوى فى طياتها علما.. ونحن على يقين من أن كل ما ورد فى القرآن الكريم لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ولا نؤكد بالعلم ما جاء فيه؛ إذ أننا نؤمن به إيمانا كاملا وعميقا، ونحن نحاول بالقرآن أن نضيف للعلم ونمنحه مزيدا من اليقين، واجتهادات أ. محمد كامل عبد الصمد تروق للقراء الذين يطالعون كتابه، ويستمتعون به ويحتاجون بين حين وآخر إلى أن يفتحوا عيونهم فى دهشة وأن يرددوا بين الحين والحين: سبحان الله.. نعم، سبحان الله والحمد لله أن هدانا إلى كل هذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا إليه سبحانه وتعالى.. هدانا إليه بالقرآن والحديث والعقل والإلهام.



الإسلام واليونسكو

أصدرت اليونسكو كتابا يحمل عنوان «الإسلام والفلسفة والعلوم» يضم أربع دراسات علمية عالمية حول الإسلام، كتبت بأقلام لها مكانتها فى دنيا الفكر.. جاك بيرك يتحدث عن جهود التجديد فى الإسلام الحديث.. وجان چوليفيه يتكلم عن الفلسفة والفكر الفلسفى فى علاقته بالإسلام حتى ابن سينا.. ورشدى راشد يعرض للإسلام وازدهار العلوم الرياضية..

يستهل أحمد مختار أمبو المدير العام السابق لليونسكو هذا الكتاب بسطور قليلة، لكنها واضحة جلية وبالغة العمق والدلالة.. يقول فيها إن الإسلام دين وأخلاق وحكمة ونظام اجتماعى ومنهاج للحياة الشخصية فى وقت واحد.. وإنه إدراك موحد للأفق الثقافية والاجتماعية المتنوعة، وللحالات الفردية المتعددة التى لا حصر لها، فقد أدى استيعاب الإسلام للشخصية الثقافية وللعبقرية الخاصة لكل شعب أن تنظم هذه الشعوب شئونها، وتوجه سلوكها وفق العقيدة، لقد

استرشدت هذه الشعوب بمثل أعلى يقوم على المساواة بين البشر جميعا أمام الشرع، وعلى مسئولية كل فرد عن مصير الجماعة وعلى إخاء بقيم دعائم العدالة ويسمو عليها فى آن معا، وعلى التسامح إزاء الغير، وعلى البحث الدائم عن المعرفة. إنه يؤكد على أن العلم المبنى على الإيمان لا يتعارض مع المعرفة المستمدة من التجربة، فالسعى إلى المعرفة الوضعية لا يتناقض مع الإيمان، بل على العكس من ذلك يشحذه.. مداد العلماء خير من دماء الشهداء..

والدراسة الأولى بقلم محمد حميد الله ـ وله أعمال بالفرنسية عن القرآن والرسول ﷺ ـ وقدم دراسة عميقة عن التسامح فى أعمال الرسول فى المدينة، وكيف حل مشكلة المهاجرين والأنصار، وكيف نظم المجتمع، وكيف واجه مسألة الدفاع عن دعوته. وهو يرى أن النبى فى (الدولة ـ المدينة) ـ وهو الأمى ـ قد أصدر أول دستور مكتوب فى تاريخ البشرية.. وما فكر فى إعلان مثل هذا الدستور الرومان والإغريق وغيرهم.. وهو دستور كامل، وليس مثل قوانين حمورابى، وتوصل الرسول إلى حرية العقيدة.. بل وإلى التأمين الاجتماعى؛ لأن الإسلام دين العالمية، ويتوجه إلى الناس فى كل العالم، كما أن هذا الدستور حل مشكلة الجنسية، ونص على ما يجب اتخاذه من إجراءات فى حالة تضارب القوانين.. وكانت هناك لا مركزية فى تطبيقها. إن مثل هذه الاجتهادات القانونية تبهرنا.. إننا نجد فيها الجديد بعد أربعة عشر قرنا؛

لذلك يشيد المناقشون لهذه الدراسة بما أتت به، خاصة فيما يتعلق بحرية الرأى والعقيدة ومحو الأمية.. ومبدعها هو الإسلام، كان الرسول ﷺ يفرج عن الأسير فى بدر لقاء فدية أربعة آلاف درهم، وهى تكفى رجلا لثلاثين عاما، وكان الأسرى سبعين أسيرا أمام كل منهم فرصة تعليم عشرةٍ القراءة والكتابة، أى أن تكلفة الفرد للتعليم تكفى لإعاشته ثلاث سنوات، ونحس أن أصحاب البحوث والدراسات قد توصلوا إلى الكثير من الأفكار المتطورة من خلال هذه الأعمال، وأنهم يقدمون صفحات فيها جدة وجدية واجتهادات لها منا التقدير والإعجاب..

ويهزنا جاك بيرك.. ينقل عن السهروردى عبارة (مشرق الإشراق ومغرب الاغتراب) فى تقسيم عالمنا إلى مشرق ومغرب، ثم يأبى ذكر تمايزات بينهما؛ إذ لا محل لها فى اليونسكو مكان التبادل الأممى عبر الثقافات.. ويرتبط هذا الموضوع بآخر، جاء بعده عن تيارات الفكر الإسلامى الحديثة فى شبه القارة الهندية الباكستانية.. ونريد أن نقفز عبر الدراستين إلى موضوع الإسلام وازدهار العلوم الرياضية، لقد انبثقت حضارة الإسلام نتيجة التقاء حضارات كبرى.. وأصبحت الإسكندرية وإنطاكية وجنديسابور منارات ثلاثاً لثقافة الفترة المتأخرة من العصر القديم، أصبحت تنتمى إلى عالم واحد، وتنطق بلسان واحد هو اللغة العربية، وشهد القرن الرابع الهجرى مرحلة أساسية فى تاريخ

الفكر الرياضى وميلاد مجموعة من أكبر رجال العلم فى كل العصور.. وظل المجتمع الإسلامى المركز الرئيسى للإبداع والإنتاج العلميين حتى القرن التاسع الهجرى، (الخامس عشر الميلادى) وقد أعطى هذا المجتمع دفعة كبيرة لازدهار العلوم الرياضية، وقد تأسست تقاليد علمية جديدة من الممكن التعرف عليها باستعراض حالة علم الجبر.. كما ظهرت معايير جديدة للمعرفة والتجريب العلمى، كما حدث فى البصريات.

ونحن نسعد بحق إزاء هذا اللون من الدراسات التى لا تقف عند حد التعريف بجهود الجدود والتراث الذى خلفوه لنا.. بل إنها تمضى إلى ما وراء ذلك وتفترض أننا نعرف قيمة ما قدموه.. والجديد هو التحليل، وتبيان أبعاد هذه الجهود ومدى تأثيرها على حضارة الإنسان فى كل مكان، وكيف مكنت الرياضيات الإسلامية بعبقريتها وازدهارها أن تضيف لعالمنا الكثير.

كتاب الإسلام والفلسفة والعلوم الصادر عن اليونسكو وثيقة إنسانية تاريخية بالغة الدلالة.. إنها محاولة من جانب هذه المنظمة الدولية للاقتراب الحقيقى لحضارة الإنسان.. إن عصر التعصب كان لابد أن يمضى ويذهب؛ ليبدأ على أنقاضه عصر تفتح ذهنى وقلبى لهذا التراث التقدمى بكل المقاييس؛ إذ يمثل إغفاله خسارة فادحة للبشرية.. والإقبال عليه دلالة قاطعة على حاجة الإنسان فى عصرنا إليه، إلى

فلسفته وعلمه.. إلى إضافاته البناءة، فلعل ذلك ينتشل الإنسان مما هو فيه من أزمات خانقة.

تحية لليونسكو، ولمديره العام أحمد مختار أمبو، على هذه المحاولة الطيبة لإقامة الجسور بين الحضارة الإسلامية المزدهرة وحضارة أيامنا التعيسة.. ولنتذكر عبارة السهروردى «مشرق الإشراق ومغرب الاغتراب».



العرب فى أوربا

هذا الكتاب (العرب فى أوروبا) للدكتور على حسنى الخربوطلى يدور حول الوجود العربى والإسلامى فى إسبانيا وفرنسا وإيطاليا، والجزر الأوربية، ويحكى عن سفارات وجاليات عربية فى أوربا.. ويؤكد بالدلائل القاطعة أن الحضارة العربية أساس للحضارة الأوروبية الحديثة..

يشعر القارئ لهذا الكتاب: (العرب فى أوربا) للدكتور الخربوطلى، يشعر بالكثير من الفخر والاعتزاز لذلك الدور الحيوى، والكبير، الذى لعبه الجدود من المسلمين والعرب فى أوربا على مدى قرون. ونريد أن نركز على ذلك الجانب الخاص بالحضارة التى حمل شعلتها شعوب تتكلم العربية، وذلك فيما بين منتصف القرن الثامن وأوائل القرن الثالث عشر، وكانت هذه الشعوب أساس نهضة أوربا الغربية، وقد أثرت الأندلس تأثيرا كبيرا فى أوربا؛ إذ كانت هى الكعبة التى يقصدها الأوربيون؛ ليتثقفوا على أيدى المسلمين والعرب، وليتعلموا منهم، وليتعرفوا على تقاليدهم من أجل تقليدها فى بلادهم.

إن أصل الحضارة الأوربية مستمد من العرب فى اللاهوت والقصص، فى الطبيعة والكيمياء، فى الرياضيات والهندسة.. والعصبية الأوربية تأبى الاعتراف بالحق، ولكن التاريخ كفيل بكشف الحقيقة.. كانت الحضارة الرومانية حضارة فتح واستعمار وبناء.. وقد قامت للرومان أنفسهم، وليست أممية ولا عالمية، بل حضارة أنانية وغرور وطغيان ترعرعت فى أحضان غطرسة الأباطرة والقواد؛ لذلك وأدوها، وعجزت الحضارة اليونانية عن الوصول بفلسفتها إلى أواسط أوربا، وعجزت شعوب هذه القارة عن هضمها بعقليتها المتخلفة، التى أفسدتها نعرة فروسية العصور الوسطى غير القادرة على الفهم والاستيعاب؛ لذلك كانت أوربا ممهدة لانتشار الحضارة العربية، ولها من المرونة والواقعية ما يجعلها تناسب الشعوب الأوربية على اختلاف بلادها وأجناسها وثقافتها، وذلك بفضل المسلمين أصحاب إسبانيا الإسلامية.

وحين يجرى الغربيون مقارنات ما بين ما كان عليه المسلمون فى تلك الأيام، وما كان عليه الحال فى أوربا يعترفون بمدى تحضرهم وتخلفها، والتفاصيل فى هذه المقارنات مذهلة.. فى حين كان شرلمان أعظم ملوك أوربا وصاحب فرنسا وجرمانيا وشمالى إيطاليا أقرب إلى الأمية، كان يعاصر هارون الرشيد وعلماء بغداد ودمشق وقرطبة يتنافسون فى الفلسفة والعلوم والثقافة.. ويرى جوستاف لوبون أن العرب مفطورون على الإبداع والنشاط، وقد ترجموا ثم تخلوا عن النقل

والاقتباس ووضعوا لأنفسهم منهجا تجريبيا عربيا وأنشئوا حضارة بسرعة، ونقلوها إلى العالم كله، وكانت الحضارة العربية مزدهرة، وسيطرت الجهالة على أوربا.. وعندما شعرت بعض العقول المستنيرة بالحاجة إلى الخلاص من الجهل طرقوا أبواب الحضارة الإسلامية والعربية، إذ كانت أروع ما فى دنيانا.

ويعترف المؤرخ رينو أن نهضة أوربا الحقيقية لم تبدأ إلا منذ القرن الثانى عشر حين أخذ أبناؤنا يؤمون إسبانيا لترجمة الكتب العربية، وليقلدوا العرب فى قيمهم كالشهامة وعزة النفس ومكارم الأخلاق، ويشيد المفكرون (لافيس) و (رامبو) بحسن استخدام العرب للمواد المبعثرة التى كانوا يلتقطونها من كل مكان، ومزجوا فيما بينها ليبدعوا حضارة حية مطبوعة بطابع قرائحهم وعقولهم وإبداعهم الخاص وتحدث المؤرخ (فالبير) عن ثلاث بعثات أوربية إلى الأندلس العربية.. آخرها كان عدد المشاركين فيها سبعمائة طالب وطالبة؛ ليتلقوا العلم والمعرفة على يد المسلمين والعرب هناك.. ويعترف لوبون أن نبل الدعوة التى حملها العرب جعلت منهم قادة فى كل مكان يحلون فيه ويتوجهون إليه؛ إذ كانوا حاملى شعلة العدل والرحمة والحضارة.. كانت سمعتهم الطيبة تسبق خيولهم. وكان الإسبان المسيحيون يملئون أجواء أوربا بالمديح والإعجاب بأعمال العرب وشرائعهم ومعاهدهم وحضارتهم، ويشيدون بالعمران الذى أدخلوه على البلاد الإسبانية فتحولت إلى جنات قطوفها دانية..

وليس أروع من رسالة ملك إنجلترا جورج الثانى إلى الخليفة هشام الثالث يقول فيها بالنص: إنه سمع عن الرقى العظيم فى معاهد العلم والصناعات فى بلاد المسلمين وأراد لأبنائه اقتباس نماذج هذه الفضائل اقتفاء لأثرهم فى نشر أنوار العلم فى بلادنا، ويتقبل هشام هدية جورج الثانى، ويكتب أنه اطلع على التماسه، ووافق عليه بعد استشارة من يعنيهم الأمر، وأنه سينفق على البعثة ـ ١٨ فتاة ـ من بيت مال المسلمين، وقبل هديته وبعث له بهدية «من صنع أبنائنا».

إن الرسالتين وثيقتان، وتحليل مضمونهما يكشف عن الكثير.. لقد أوجزناهما ولم يخل ذلك بالفكرة الأساسية فى كل منهما.. ولقد بقى من البعثة فى إسبانيا نصفها تقريبا، وأسلموا، وشاركوا فى الحياة الثقافية الأندلسية، واتخذت الحضارة العربية شكلا عمليا فى دول أوربا المختلفة، فقد انتهت بعد حين مرحلة التدوين والترجمة والاقتباس، وبدأ الأوربيون يهضمون هذه الحضارة العربية ويتمثلونها، ثم يطبقونها فى سائر فروع الحياة..

إن كتاب الدكتور على حسن الخربطلى «العرب فى أوربا»، على الرغم من أنه من سلسلة المكتبة الثقافية التى تصدر فى عدد قليل من الصفحات فإنه كتاب كبير القيمة، حافل بالكثير..

* * *

العرب المسلمون والحضارة الأوربية

تتزاوج الثقافات، فتولد الحضارات، وقد وضع العرب المسلمون بذورها ـ كما يقول الأستاذ محمد مفيد الشوباشى ـ فى كتابه عن العرب والحضارة الأوربية، وهو يبهرنا بما يضفيه على العرب من صفات حضارية، ويتألق حين يعرض إلى تقاليد الفروسية العربية، وعندما يتحدث عن فنوننا وأدبنا...

نشأت الحضارة الأولى فى وادى النيل ـ كما يجمع المؤرخون ـ وانتشرت حضارتهم مع فتوحاتهم.. وحدث نفس الشىء مع الحضارة الإغريقية.. لكن الخير الذى عم بلاد الفتوحات لم يتوافر عن قصد، وإنما جاء عرضا.. أما الفتوحات الإسلامية فكما يقول الأستاذ مفيد الشوباشى فقد استهدفت نشر الثقافة الإسلامية، ووضعت هدفها هذا نصب عينيها، فأنتج ذلك نتيجته المرتقبة، وهى عمق أثر تلك الفتوحات.. بل لقد تمخضت فى آخر الأمر عن الحضارة الأوربية التى بلغت اليوم ذروة لم تكن متوقعة.. والحضارة لا تنتقل من بلد إلى بلد كما ينتقل المصباح الذى يضىء، لكن الحضارة ترسل شعاعها

فيستضىء به كل بلد هيأته ظروفه للنور. وكانت أمة العرب ذات حضارة مرموقة، استمدت أسسها من حضارة مصر والفرس، ولما اغترفوا من معين الثقافة الإغريقية المتأثرة بمصر لم يجدوا صعوبة فى استيعابها وهضمها، ولم يعدموا القدرة على مزجها بثقافتهم وطبعها بطابعهم، ولم يلبث هذا المزيج الثقافى أن تمخض عن حضارة عربية أعلى مستوى وأجد طابعا من سابقتها، وإن كانت قد استعانت بها على النماء والازدهار ثمرة للعقلية العربية الصافية كسمائهم، المتألقة كنجومهم.

إن هذه العقلية الثاقبة المنقبة المتغلغلة إلى الأغوار، المتسربة إلى الأطراف والحواشى هى التى طبعت ذهن علماء الغرب قبيل عهد إحياء العلوم بطابعها الفذ، والتى علمتهم كيف يدرسون وينقبون ويستنبطون النتائج المترتبة عليها هذه الميزة.. ميزة الدقة العلمية اكتسبها علماء أوربا من العرب، مكنتهم من تحقيق كشوفهم العلمية، ولم ينجحوا فى ذلك إلا فى ظل حرية الفكر التى استقوا عبيرها العبق من العرب، فهاموا بها وانتزعوها من أيدى المتعصبين المستبدين، كما مدهم العرب بالرياضيات ففتحت أمامهم طريق التقدم، والجانب المادى فى الحضارة الحديثة يقوم على الرياضيات التى هى مغاليق العلوم الطبيعية والهندسية والجغرافية.. بل استفاد منها ديكارت وراسل فى الفلسفة. ويؤكد مؤرخو الغرب أن فلسفة ديكارت ـ التى اعتمدت على الرياضيات العربية ـ أنها كانت نقطة انتقال وتحول من عهد محاكاة الإغريق إلى عهد الأصالة والانطلاق.. وقبل ديكارت استفاد

كوبرنيكس وجاليليو من علم العرب، وتوصل نيوتن إلى كشف القوانين الطبيعية باللوغاريتمات التى ابتكرها، فاتخذت اسمها منه: الخوارزمى.. ولعل ذلك هو السر فى أن «كانت» يقول: إن الرياضيات هى العلم اليقينى الوحيد، وكان مصدره العرب. إن الدور الذى لعبه العرب فى تاريخ الحضارة أنهم وضعوا أوربا التى كانت تعيش على فتات علوم الإغريق على أول طريق التقدم الحضارى الحديث وزودوها بأدوات النجاح فى الوصول إلى الغايات الحضارية.

ويدفع محمد مفيد الشوباشى عن نفسه شبهة التعصب لحضارتنا، وينقل إلينا رأى علمائهم الذين لم يكتفوا بذكر دور العرب فى صنع الحضارة المعاصرة، بل يؤكدون أنه ما كان يقوم لولاهم.. يقول «بوبير بريقو» فى كتابه (الشعراء التروبادور): «كانت أوربا فى القرن الحادى عشر والثانى عشر تتجه إلى العرب باحثة عما استجد عندهم من صناعات وعلوم، منقبة عن كشوفهم فى علوم الرياضيات والفلك والطب والكيمياء، وكانوا يلتمسون عند العرب مصادر عالم جديد من الفكر والعلم..» وبعد أن يعرض الكتاب لصفات العرب الحضارية، ولموقف المرأة العربية من الحضارة، وهو موقف تقدمى بكل المعايير والمقاييس ــ ينطلق المؤلف إلى تقاليد الفروسية العربية التى نقلتها أوربا إليها وأثرت فى تطورها تأثيرا عميقا. إن تقالد الفروسية نشأت فى الأصل بين مختلف الأمم العربية ــ كما يقول شاتومبريان ــ وكم من دروس فى تقاليد الشرف والتسامى والنبل تلقنها الأوربيون الهمج عن فرسان الإسلام كما جاء فى كتاب الشعراء التروبادور. أما ما أحدثته

فنون العرب فى الموسيقا والغناء والرقص فى فنون أوربا فهو كثير، فقد ابتدعوا الربابة العربية وعرفت أوربا الكمنجة، كما أحدثوا تحسينات جوهرية على الفلوت والعود والقانون.. ويضيف كتاب التروبادور «لولا آلة الكلافن التى تولدت من «قانون التخت» ولولا الكمنجة التى تولدت من الربابة لظلت عبقرية (باخ) و (موزار) خرساء، ولظلت أذننا صماء لا تسمع النغمات الساحرة التى تشجيها وتسكرها فى هذه الأيام» وفطن الموسيقيون العرب بأوزان الشعر العربى الدقيقة المضبوطة إلى التوقيت الموسيقى، الذى أصبح أساس النهضة الموسيقية العربية، ولعل الرقص على نغمات الموسيقا المنوعة النغمات ـ وهو ابتداع عربى ـ ساعد على إتقان التوقيت الموسيقى وخصائص هذا الأدب الذى نقلت عنه أوربا الكثير... وقلدته فى أعماله، بل سطت على بعضه كما فعل «بوكاشيو» و «دانتى» و «دون جوان» و «تشوسر».

ويختم الأستاذ الشوباشى كتابه بأنه لا يهدف إلى إثارة الغرور فى صدور العرب، فيغنيهم عن السعى لتحقيق أمجاد جديدة، لكن الغرض أن نعلم أن أجدادنا ساهموا بأكبر نصيب فى بناء مسرح الحضارة الراهنة هى تراثنا قدر أن تكون تراث سائر الأمم التى ساهمت فى تشييدها، ولا غضاضة علينا فى إتقان مقوماتها النافعة الملائمة لنا، على أن نطورها.

* * *

علماؤنا العرب المسلمون

«علماؤنا العرب» ترددت أسماؤهم من خلال أحاديثنا عن الحضارة الإسلامية والعربية، وقد اختار الأستاذ معاوية حنفى محمود مجموعة كبيرة تحدث عن دورها وفضلها فى بناء حضارة الإنسان الحديثة، وسنتوقف عند بعض الأسماء التى لم نعرض لها.

.. أول مدرسة للطب فى أوربا أنشأها المسلمون فى «ساليدن» فى إيطاليا، وأقاموا أول مرصد فلكى فى إشبيلية بالأندلس، وأول جامعة فى العالم أقاموها فى فاس كما يقول ويلز حتى فى مجال صناعة النسيج ابتكروا الدمشقى، نسبة إلى دمشق.. والموصلين نسبة إلى الموصل... حتى كتابة الحروف البارزة ـ وتنسب لبرايل ـ سبقه إليها زين الدين الآمدى.. وبهذه المقدمة يبدأ كتاب «علماؤنا العرب» وفى أوله يتحدث عن جابر بن حيان، واحتفاظ المتحف البريطانى بنسخة خطية من كتابه «الخواص الكبير» أما المكتبة الوطنية فى باريس فتحتفظ بنسخة من «الأحجار» ويقول «ويبروج» عبارة مبهرة.. إن أرسطو والفارابى على

قدم واحد من المساواة.. وقد أودع آراءه فى الإصلاح الاجتماعى فى كتابه (المدينة الفاضلة) .. وقد ترجم أغلب كتبه إلى اللاتينية، وذهب بعض المفكرين إلى أن ابن الهيثم سبق جاليليو فى اكتشاف نظريته الخاصة بسقوط الأثقال ذات الأوزان المختلفة من مكان مرتفع، وسبق نيوتن فى نظرياته فى الميكانيكا وعلم الضوء والبصريات، ويعرض للبيرونى وابن سينا، قبل أن يتوقف عند الإدريسى الذى يقول البارون دى سيلان عن كتابه (نزهة المشتاق) إنه لا يوازن ولا يقارن بأى كتاب جغرافى سابق له وإن بعض أجزاء المعمورة لا يزال هذا الكتاب دليلنا إليه، وعندما يتحدث عن ابن رشد يراه رائد طب الأطفال، بجانب عمق فلسفته، وكان يؤمن بالمجتمع، ويرى أن مصلحته فوق مصلحة الفرد، كما نادى بتحرير المرأة ورفض أن يمسك بها الرجل لنفسه كأنها حيوان أليف.

ويدهشنا ابن البيطار بدائرة المعارف التى كتبها مرتبة وفق الحروف الأبجدية، وتدور كلها حول النباتات والأعشاب، الأمر الذى يجعل منها شيئا متقدما فى العصر الذى كتبت فيه. وقد ترجمت للاتينية والفرنسية. الطريف أن العالم رشيد الدين الصورى كان يصطحب معه رساما، ما إن يعثر على نبات جديد حتى يكتب اسمه وصفاته، ثم يسأل الرسام أن يسجل رسم النبات ويلون أجزاءه تلوينا طبيعيا.. وكان يرسم النبات فى مراحل نموه المختلفة.. أما ابن بطوطة فقد كان الكوكب الهادى لرحلات مارك بولو الإيطالى، بل ووراء رحلات كل

من ماجلان وفاسكودا جاما وكريستوفس كولمبس.. إن رحلات ابن بطوطة كانت أطول الرحلات قبل اختراع الطائرة والباخرة والسيارة، ولم تكن هذه الرحلات لمجرد النزهة.. بل هي رحلات علمية رأى فيها البلدان ووصفها، وقابل أهلها وتحدث إليهم، ونقل عنهم، وكتب عن حياتهم الاجتماعية بصورة غير مسبوقة..

ويتوقف بنا كتاب (علماؤنا العرب) عند ابن خلدون الذى عاش ما بين ١٣٣٢ و ١٤٠٦ ميلادية ما بين تونس ومصر... لقد عاش حياة نشطة مذهلة مليئة بالإنتاج خصبة بالعمل الرائع المستمر.. ومقدمة ابن خلدون واحدة من أشهر الأعمال الخالدة على مر التاريخ الإنسانى.. إنها وراء علم الاجتماع... بل وراء الكثير من الأحكام العامة التى يرددها الناس نقلا عنه.. كقوله.. الظلم مؤذن بخراب العمران، وكلمة العمران عنده تعنى إلى حد كبير الحضارة.. وهو يرى أن الدولة لها أعمار طبيعية كما للأشخاص، وأن الأمة المغلوبة مولعة بتقليد الغالبة فى شعارها وزيها وسائر أحوالها، وأنها حين تغلب وتصير فى ملك غيرها يسرع إليه الفناء. ويرى توينبى أن ابن خلدون أنشأ فلسفة التاريخ.. ويرى استفانو كولازيو الإيطالى أن ابن خلدون سبق فى علم الاجتماع ماكيامبكى، ومنتسكيو بوضع علم النقد التاريخى، وسبق ماركس وباكونين إلى الاقتصاد السياسى والعدالة الاجتماعية. ويقول فارد ـ وهو من علماء الاجتماع الأمريكيين: إن ابن خلدون أظهر تبعية المجتمعات لقوانين ثابتة، وهو أول من قال بمبدأ الحتمية فى الحياة

الاجتماعية.. إنه فيلسوف مثل أوجست كونت وهربرت سبنسر.. إنه مفكر عصرى بكل المقاييس.

ويتحدث الكتاب كتاب (علماؤنا العرب) بعد ذلك عن أبى الفرج الأصفهانى صاحب كتاب الأغانى.. والكتاب فى رأى الكثيرين ديوان العرب وجامع أشتات المحاسن التى سلفت لهم، فى كل فنون الشعر والتاريخ والغناء، وقيل عنه إنه كان يحفظ من الشعر والأغانى والأخبار والآثار والأحاديث المسندة، والنسب ما لم يحفظه أحد.. وذلك بجانب ما حفظه من علوم أخرى كاللغة والنحو والخرافات، والسير والمغازى.. ويقول فارمر فى كتابه عن الموسيقا العربية: إن كتاب الأغانى طراز فريد من الإنتاج الأدبى، فهو بجانب كونه تاريخاً للموسيقا العربية يحتوى على ذخيرة من المعلومات عن كل شىء فى الحياة الاجتماعية للعرب.. وقد عنى به المستشرقون وترجموا الكثير منه، وعملوا فهارس عدة له، ومن مادته استمد كثيرون أعمالا فنية عدة: قصصية ومسرحية.. إن الكتاب موسوعة لم تستطع أوربا أن يكون لديها مثيلها..

والحق أن الأستاذ معاوية حنفى محمود قد أحسن اختيار الزوايا التى تناول منها العلماء الذين وقع عليهم اختياره، وقدّم عن كل منهم مادة تكشف إسهاماتهم الحضارية.

* * *

نوابغ علماء العرب والمسلمين
فى الرياضيات

هذا الكتاب عن نوابغ علماء العرب والمسلمين فى الرياضيات للدكتور على عبد الله الدفاع يستهدف إيضاح الصورة الحقيقية للمساهمات الإسلامية العلمية وإنتاج علماء المسلمين الرائع إبان العصور الأولى للحضارة الإسلامية التى لم تقف معالمها عند حدود الدين والسياسة والدولة بل تَـعَـدَّتها إلى حقول العلوم.

طورت الأمة الإسلامية ـ كما يقول الدكتور على عبد الله الدفاع ـ ما جاءت به الحضارات السابقة كالمصرية والبابلية واليونانية والرومانية وزادت عليه ابتكارات وإضافات لاتعد ـ فى كافة المجالات الخاصة بالنشاط الإنسانى، ويقتصر كتاب «نوابغ علماء العرب والمسلمين فى الرياضيات» على الإنتاج الإسلامى فى هذا الحقل أيام كانت أوربا فى نومها العميق، وبذلك ساهم أجدادنا فى دفع عجلة الحضارة الإنسانية على مر العصور. فى البداية كان الإسلام وراء الاهتمام بالعلوم

والرياضيات.. باستخدام الهندسة استطاع المسلمون تحديد اتجاه القبلة، وباستخدام الفلك استطاعوا تحديد بداية شهر رمضان المبارك.. كانت هذه هى البداية، وكان القرآن الكريم قد حث الإنسان على النظر فى ملكوت السماوات والأرض، وبذلك كان هذا الكتاب السماوى القوة الدافعة وراء هذه البحوث العلمية، كما حث الرسول ﷺ على طلب العلم من المهد إلى اللحد، ولو فى الصين. ويدين العالم بالكثير للقرنين الثالث والرابع الهجريين؛ إذ فيهما حافظ المسلمون على تراث الإنسانية القديم ونموه، وأضافوا إليه ابتكاراتهم.

ذلك أن الحساب والفلك الإغريقيين انتقلا إلى أوربا عن طريق المصادر الإسلامية. لقد وفق الله علماء الأمة الإسلامية والعربية إلى ابتكار نظامين لكتابة الأرقام: الغبارى، والخوارزمى.. وكان للأعداد العربية ميزات ثلاث: سهولة استعمالها.. ثم سهولة فهمها.. ثم طابعها المنطقى. وابتكر المسلمون الصفر الذى يعتبره الرياضيون أعظم اختراع وصلت إليه البشرية، واستخدمه العرب قبل الهنود بأربع سنوات.. ويستحيل بدون الصفر وجود الكمية الموجبة والكمية السالبة مثلا فى علم الكهرباء، والسالب والموجب فى الجبر، وبدأ علماء الرياضيات المسلمون ابتكاراتهم فى الجبر فى القرن الثالث الهجرى، ومازالت أوربا تعرفه باسمه العربى، وطبق المسلمون علم الحساب فى تجارتهم اليومية، وعلم الجبر فى علم الميراث المعروف بعلم «الفرائض» ودفعهم البحث عن معرفة أوقات الصلاة التى تختلف حسب الموقع ومن يوم إلى اخر

إلى دراسة حركة الشمس فى البروج وإلى ابتكار حسابات متناهية الدقة، فنهض المسلمون بعلم الفلك، وانشق عنه علم حساب المثلثات لإيجاد حل عددى لبعض مسائلهم.. والفكرة الأساسية فى علم حساب المثلثات هى قياس المساحات الكبيرة والمسافات الطويلة بطريقة غير مباشرة كقياس الأهرام مثلا، أو أى بعد صعب المنال مثل ممر بين جبلين والأبعاد فى حقل الملاحة.. أما الهندسة وهى علم مصرى قديم ـ فقد أسهم فيها المسلمون وركزوا على الهندسة التطبيقية، ولهم مؤلفات عديدة فى المساحات وتحليل المسائل الهندسية، وبها وضعوا أسس الهندسة الحديثة..

ويعرض د. على عبد الله الدفاع فى كتابه (نوابغ علماء العرب والمسلمين فى الرياضيات) لبعض المشاهير فى هذا المجال، وفى مقدمتهم بالطبع الخوارزمى مبتكر اللوغاريتمات وعلم الجبر.. وأجمل ما يستوقفنا فى الكتاب تلك الصفحات المخطوطة بيد الخوارزمى نفسه.. إننا نقف أمامها فى انبهار كأننا مع لوحة فنية.. أهذا هو خط الرجل الذى له فى الرياضيات أكثر مما لنيوتن؟ ثم يحدثنا عن الكندى، وثابت ابن قرة الذى مهد تمهيدا عمليا لحساب التكامل والتفاضل، ثم نرى مخطوطا للتعديلات التى أدخلها ثابت بن قرة على برهان نظرية فيثاغورث ونتملاها بإعجاب شديد، والبتانى ـ وهو أحد أحفاد ثابت ـ فهو أول من أوجد جداول فلكية لها مستوى كبير من الأهمية.. ومن الإتقان والدقة، كما كان أول من أولى المثلثات الكروية العناية حتى

أضحت على يده علما.. وأبدع أبو الوفا فى إدخال علم الهندسة على علم الجبر، مما أدى إلى اكتشاف الهندسة التحليلية وعلم التفاضل والتكامل، وطور علم حساب المثلثات كعلم مستقل بذاته عن علم الفلك.. حتى سميت فوهة بركان بالقمر على اسمه، ويأتى بعد ذلك اسم ابن الهيثم رائد البصريات، بل والتكنولوجيا الحديثة التى مكنت الإنسان من وضع أقدامه على سطح القمر.. كانت لديه عقلية القرن العشرين، وإن كان قد عاش فى القرن العاشر.. ويحدثنا الكتاب عن الكرخى، والبيرونى، وعمر الخيام ومؤلفاته.. وعن نصير الدين الطوسى والكاشى وبهاء الدين العاملى، ثم قدم خلاصة لما نهض به علماء المسلمين عامة فى مجال الرياضيات الواسع، كل ذلك يظهر لنا بوضوح أن المسلمين القدماء كانوا أمة بحاثة عالمة تهتم بتطبيق الأفكار النظرية فى المجالات العلمية لتحسين ثقافتها ورفع مستواها العلمى والحضارى.

* * *

اللقاء الفريد

ماذا يحدث لو أن علماء العرب وعلماء الغرب الذين عملوا فى مجال واحد: التقوا؟... لاشك أنه سيكون اللقاء الفريد.. وذلك هو عنوان الكتاب الذى يروى قصة حضارة العرب وكيف سبقوا الغرب، ثم كيف تفوق الغرب على العرب.. والكتاب فاز بجائزة الدولة.

فى بداية كتاب اللقاء الفريد كلمة وحكاية.. الكلمة تقول إن وراء الكتاب نقطة ويدور حول نقطة.. الفرق بين كلمتى عربى وغربى نقطة.. هى التى يدور حولها الكتاب: حضارة العرب وحضارة الغرب. لقد سبقناهم فى العصور القديمة فى مصر وبابل وآشور واليمن وفينيقيا.. وسبقناهم فى العصر الوسيط فى العلم والاختراع.. فى الاكتشاف والابتكار.. فى الفلسفة والأدب والفن.. ثم تخلفنا عنهم.. ليتنا لا ننسى هذه وتلك. نعم، جدودنا بنوا الأهرامات والسدود، لكن ماذا فعلنا نحن؟.. نعم، أخذوا عنا الكثير، لكن ما بالنا ـ نحن أصحاب هذا الذى أخذوه ـ نكتفى بالماضى، نلوكه فى غرور، أو نقسو على

أنفسنا إلى أقصى الحدود؟ ابن الهيثم يلتقى مع نيوتن فى حديث عن علم الضوء.. ويعترف نيوتن للعالم العربى بما صححه من علم اليونان فى البصريات، ويرى أننا لولاه ما عرفنا الميكروسكوب والتلسكوب ولا هذه النظارات التى نضعها على عيوننا ونبتسم، فإن أبناءنا يعرفون نيوتن وشجرة التفاح والجاذبية وعلاقته بالضوء وألوان الطيف، لكنهم لا يعرفون الحسن بن الهيثم، ولا يعرفون أنه صاحب مشروع بناء السد العالى جنوب أسوان منذ مئات السنين، واللقاء الفريد فى مجال الملاحة كان بين ابن ماجد الملاّح العربى الشهير وفاسكوداجاما.. ولقد حدث هذا اللقاء فعلا، وأرشد ملاحنا سفن الْـبَـحَّـار البرتغالى الذى أخذ لنفسه كل المجد، ونسى الناس ابن ماجد.

وفى الطيران عالمنا يتحدث عن الأخوين (رايث) وعن لندنبرج، لكن ماذا عن ذلك العالم الذى فقد عمره ثمنا لمحاولة الطيران؟ ماذا عن عباس بن فرناس؟ هل يذكرونه والساعة التى صنعها والقبة السماوية التى جعلها فى بيته؟

وعندما يتطرق الكلام إلى فن مثل فن التمريض، يرد اسم فلورنس نبتيجيل ويرددونه فى فخر واعتزاز، ويقولون إنها أول ممرضة فى التاريخ وإنها سليلة البيوتات وإنها... يقولون إن فلورنس نبتيجيل خففت من آلام المرضى، وويلات الحروب على الجرحى والمصابين فى الميدان، وإنها بذلك قد قامت بعمل إنسانى رائع ورائد، ولم يسبقها إليه أحد على مر التاريخ، ونذكرهم بالعربية المسلمة رفيدة بنت سعيذ التى

سبقت نبتيجيل بمئات من السنين، ونقول لهم إن نبتيجيل قد سمعت قصتها حين زارت مصر وعندما زارت الأزهر الشريف.. كانت خيمة رفيدة مستشفى ميدانيا أيام الحروب، وكانت بحق أول ممرضة فى تاريخ الحضارة الإنسانية، لكنهم ينسونها أو يتناسونها، ولا يذكرون إلا ممرضتهم التى أقاموا لها التماثيل.

هكذا يمضى كتاب «اللقاء الفريد» يزاوج بين الحضارة الإسلامية العربية وبين الحضارة المعاصرة الغربية بما يبتكره مؤلفه من اجتماعات خيالية بالغة الطرافة والجدة والعمق.. فى مجال الأدب يجمع ما بين ابن طفيل ودانيل رينو.. أولهما مؤلف حى بن يقظان، ذلك الإنسان الفريد الذى عاش وحيدا فى جزيرة وأرضعته ظبية، وكبر دون أن يلقى إنسانا آخر، ويستطيع حى بن يقظان ـ وحيدا ـ أن يكابد الحياة، بل ويفكر فى الكون حتى يتوصل إلى أن هذا الكون لابد أن يكون له خالقه.. وتنبهر الدنيا كلها بهذه الشخصية الفريدة.. ويأتى دانيل رينو ويؤلف (روبنسون كروزو) علي نسقها ـ وكما جاء آسال يوما ليؤنس وحدة حى بن يقظان يأتى (جـمعه) ليشارك (كروزو) فى الحياة فى هذه الجزيرة. ويجمع مؤلف الكتاب بين هذه الشخصيات الأربع.. يجمع المؤلفين، ثم الشخصيتين المبتكرتين حول المدفأة وفنجان شاى.. وتعترف أوربا بأنها أخذت الفكرة عن العرب والمسلمين.. حتى صناعة القلم الحبر يتصورون دائما أن (ووترمان) هو مبتكره وصانعه.. وإذا

بمؤلف (اللقاء الفريد) يأتى لنا من باطن كتب المؤرخ العربى ابن عساكر بسطور مبهرة تقول «كان صاعد بن الحسن يغرب فى أشياء يخترعها، وكان مما اخترعه «قلم الجاف» وهو أنبوب القصب أو الغاب ـ كان يملأ القلم مدادا يخدم قريبا من شهر.. لا يجف ولا يتوقف عن الكتابة.

ويكتب مؤلفنا رسالة كان مفروضا أن يكتبها العالم الإيطالى جاليليو.. الرسالة إلى العالم العربى المسلم (ابن يونس المصرى) الذى كان له مرصد رائع فوق جبل المقطم.. إن جاليليو يعترف له بأنه ـ أى ابن يونس ـ قد سبقه إلى بندول الساعة قبل ستة قرون.. وأن العرب عرفوا الساعة قبل أوربا بسنين.. وكان للملك الكامل شمعدان يخرج منه كل صباح ديك يوقظه لصلاة الفجر.. وفى معرض فرانكفورت الدولى يلتقى وليم هارفى الذى ينسبون إليه أنه اكتشف الدورة الدموية، يلتقى مع ابن النفيس صاحب البحوث والمخطوطات العلمية والطبية العربية الرائعة.. ومن اللقاء نكتشف أن ابن النفيس قد سبق وليم هارفى بأكثر من ثلاثة قرون، بل إن الكثير من أسرار الدورة الدموية قد عرفه العربى المسلم قبل هارفى بثلاثة قرون..

ألستم معنا فى أن هذا «اللقاء الفريد» فى ذاته فكرة طيبة؟.. هى تريد أن تذكر بالماضى وتنبه للحاضر وتقول إنهم ـ رغم سبقنا لهم ـ قد لحقوا بنا وتفوقوا علينا كثيرا.. وإن علينا أن نبذل الكثير من الجهد

لنستوعب ما كشفوه وابتكروه.. وليس ذلك صعبا؛ فنحن ورثة صانعى الحضارة..

ذلك هو سبيلنا إلى حضارة جديدة تجمع بين تكنولوجيا العصر وبين الإيمان بالروحانيات ورسالات السماء.. من غيرها تتعثر خُطَا الإنسان على الأرض ويتوه ويضيع..



فضل العرب والمسلمين على الحضارة العالمية

تحدث الدكتور أحمد فؤاد الأهوانى عن فضل العرب والإسلام على الحضارة العالمية.. ولم يسهب وإنما ركز حديثه على نقاط خمس، رأى أنها وراء قيام حضارتنا وازدهارها، وأنها كانت السبب فى ذلك التقدم الذى وصل إليه الغرب فيما بعد حين اقتبسوا عنا كل شىء..

كان فردريك الثانى من الذين حملوا بذور النهضة الأوربية التى أثمرت فى القرن الرابع عشر... وقد استقى نزعته الجديدة من العرب، وفى ذلك يقول دينان فى كتابه ابن رشد والرشدية: «كانت الفكرة المسيطرة على ذلك الرجل العظيم هى الحضارة بكل ما تحمل هذه اللفظة من معنى حديث، أى التقدم النبيل الحر للطبيعة الإنسانية فى مقابل ما ساء العصر الوسيط من اتجاه نحو الانحطاط والقبح» بهذه العبارات يستهل د. أحمد فؤاد الأهوانى كلماته عن فضل العرب على

الحضارة العالمية، موضحا أن فردريك الثانى تعلم اللغة العربية، ودعا إلى بلاطه الرياضيين والعلماء من العرب، وتحدث إليهم واقترب منهم. والعرب فى رأى المستشرق الأستاذ نللينو هم جميع الأمم والشعوب الساكنين فى الممالك الإسلامية المستخدمين اللغة العربية فى أكثر تآليفهم العلمية، إذ امتزجت العروبة والإسلام بحيث يصعب الفصل بينهما. والحضارة العربية الإسلامية كانت هى النموذج الذى يحتذى مثاله فى أى مكان فى العالم، سواء نظرنا إلى هذه الحضارة من جانبها الخارجى الذى يتجلى فى الفنون والصناعات أو جانبها الداخلى أو الأخلاقى والدينى.. وتمتاز حضارتنا بأمور خمسة يتضح منها فضلها على الحضارة العالمية، وهذه الأمور هى: احترام الإنسان، والتمسك بالمثل العليا، وحرية الفكر والعقيدة، واتباع العقل وتمجيده، والإيمان بالتقدم.. وتفرعت عنها جوانب عدة.

ويقف د. أحمد فؤاد الأهوانى عند كل أمر من هذه الأمور.. الإنسان هو حامل الحضارة؛ لذلك أحاطته حضارتنا بسياج من الضمانات، فالإسلام سوى بين البشر، والناس سواسيه كأسنان المشط، لا مراتب ولا طبقات. قضى الإسلام على فكرة انقسام الناس طبقتين: أشراف وعبيد. كذلك أصبح للمرأة حقوق فى التعليم والعمل مثلما للرجل، واحترام الإنسان جعله يتقن عمله وفنه، بصرف النظر عن الجنس والدين.. وذلك يتم بالتربية.. وقد سن النبى ﷺ الندوة للاهتمام بالتعليم.. التعليم الذى هو حق، مصدره ـ كما يرى الفقهاء

ـ القرآن نفسه؛ لأن الصلاة مفروضة على كل المسلمين؛ لذلك استقبلت الكتاتيب والمدارس الصبيان والبنات سابقين العالم بذلك، وتعلق الناس بالكتب، وتنافس الخلفاء والأمراء فى الحث على تأليفها وترجمتها، وكان المأمون يعطى المترجمين وزن الكتاب ذهبا فى وقت كانت فيه أوربا غارقة فى ظلام من الجهل، فلا مدارس ولا تآليف إلا فى القرن الثالث عشر.-وقد ورث العرب طائفة من المثل العليا، وعنوا باللغة والفصاحة والبلاغة، وصوروا بها خوالج النفوس وسبحات الخيال وصور المجتمع، وتمسكت هذه الحضارة بأمور الفكر والحس والشعور، وترفع من شأنها على (مجرد الماديات) والمثل العليا تعبير عن القيم السائدة فى المجتمع، وقد جاء الإسلام، وبين أن هناك مراتب أسمى بعضها من بعض: هناك الدين والدنيا، والدنيا والآخرة، ومصلحة الفرد ومصلحة الجماعة، والعدل والرحمة، الحرب والسلم ـ وعلى الجملة الأمور المادية والأمور الروحية ـ وقد كانت المثل العليا الأخلاقية والاجتماعية التى جاء بها الإسلام هى سبب ازدهار حضارته واستمرارها فى هذا الازدهار والقوة والتماسك ما يقرب من ثمانية قرون من الزمان.. ولولا هذه المثل لانهارت حضارتهم فى أقصر وقت.

ويرى د. أحمد فؤاد الأهوانى فى دراسته حول فضل الإسلام والعرب على حضارة العالم، يرى أن «الحرية» من أعظم المثل العليا التى تعد الضامن لكل حضارة؛ لأنها تفسح المجال للفرد أن يبدع ويخلق، وأن يحسن التعبير عن نفسه، وكانت الحرية أساس حضارتنا: حرية

سياسية. دينية. عقلية. وليست حريات روزفلت الأربع بعذ الحرب بجديدة، ونعنى بها التحرر من الفقر، ومن الخوف.. ثم حرية الفكر، وحرية العقيدة.. إنها الحريات التى جاء بها الإسلام قبل قرون عدة: التحرر من الفقر كفله الإسلام بالزكاة والتكافل، والتحرر من الخوف كان بنشر العدل واستقلال القضاء.. وحرية العقيدة وضحت فى أنهم لم يفرضوا الإسلام بالقهر وعاش أصحاب الديانات الأخرى فى ظل الحضاة العربية، يعملون بلا ضغط ولا إرهاب، وكانت الحضارة العربية تموج بالمذاهب والنِّحَل المختلفة، وما جهرت هذه الحضارة إلا حين اتهم مخالفوهم بالكفر، والزندقة.. كما كانت حرية الفكر وراء تقدم العلوم التى تقدموا فيها، فيما قيدتها أوربا بقيود ثقيلة، فاتهم الكيميائيون بالشعوذة، وتقضى حرية الفكر الرجوع إلى العقل والاعتماد عليه... إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون.. وقد رجعوا إلى العقل فى جميع الأمور: فى الفكر والدين، وفى العلوم الرياضية، وفى العلوم الطبيعية، وفى سلوك الإنسان وأخلاقه. والحضارة لا تزدهر إلا إذا آمن الناس بفكرة التقدم، سواء كان ذلك فى المعرفة والعقل أو فى المجتمع وتطوره، أو فى المظاهر المادية التى تعمل على رفاهية الناس.. وأخذت عنهم أوربا هذه الروح الحضارية التى تنمو نحو التقدم.

وعندما أصيبت الحضارة العربية ـ كما يقول د. أحمد فؤاد الأهوانى ـ بالجمود لم يعد العرب يؤمنون بالعقل، وانصرفوا عن هذه الدنيا، ولم يعد التقدم يفتنهم، واعتقدوا أن المادية هى الشطر المسيطر.

نعم، الإسراف فى المادية يؤذن بزوال الحضارة، ومن أجل ذلك يقولون بقرب زوال حضارة الغرب، وسارت نزعة التشاؤم، وما من سبيل أمام الإنسانية إلا بعودة الحضارة مرة أخرى إلى العرب، أولئك الذين يدينون حقا بالخير والسلام، والحرية والتسامح والتمسك بالقيم الروحية التى ورثها الإنسان من أقدم العصور، ونحن بالغون ذلك ـ إن شاء الله ـ ما دمنا مؤمنين بالله وبأنفسنا.



العلماء العرب المسلمون

فريدة فكرة هذا الكتاب.. عن العلماء العرب الذين أثروا فى الحضارة الأوربية.. تأليف ولوحات الأستاذ الفنان إبراهيم إبراهيم الكردى.. فقد عرض لتاريخ عدد من العلماء المسلمين والعرب ولدراسة لعلم الأجناس، المجتمع الذى ولدوا فيه، والنشاط الذى قاموا به، ورسم صورهم، فجمع بين التاريخ والعلم والفن.

ليس صعبا أن نكتب عن العلماء العرب، وكيف أثروا فى الحضارة الأوربية، فالمراجع العربية وكذلك الأجنبية متوافرة.. لكن الجديد محاولة رسم صور هؤلاء العلماء، بشكل يقترب من الحقيقة.. لقد تناولت دراسات عدة الملابس والعمارة، كما أن علم الأجناس يعرفنا على التكوين العظمى للجمجمة، ولكل عالم ملامح وهيئة خاصة قد نلمسها من تخصصه، أما الخلفية فترمز للمجال الذى كان يعمل فيه، إذ بدأ الكتاب بلوحة عن سوق عكاظ، وقد بزغت فيه الشرارات الأولى للعبقريات العربية التى تحولت بعد الإسلام إلى شموس متوهجة بددت ظلام الجهل وأضاءت السبيل أمام العقول فى الشرق والغرب.

ويرجع الكاتب الرسام إلى د. عبد الرحيم منتصر وكتابه عن تاريخ العلم والعلماء ليسرد تاريخ العلاقة بين العرب وحضارة اليونان، ويأسف لأن شبابنا لا يعرفون ابن سينا وابن الهيثم والخوارزمى، ويعرفون أديسون ونيوتن. وهو يرى أن الإسلام كان له الأثر الأول والأكبر فى خلق جَـوٍّ علمى خالص وفى تهيئة العقول والقلوب لحب العلم والتفكير فى ملكوت الله، فقد حث الإسلام على طلب العلم ولو فى الصين.. ويشير إلى دور العلم الإسلامية «بيت الحكمة والجامع المنصور فى بغداد، ودار العلم فى الموصل، ودار الحكمة والجامع الأزهر فى القاهرة، الجامع الأموى فى دمشق، وجامع القيروان فى تونس».. كلها كانت محجة ومزارا لطلاب العلم.

ويفرد الكتاب فصلا عن فضل العلماء العرب على النهضة الأوربية الحديثة، وينقل عن (سيدبو) أن إنتاج العرب وأفكارهم الغزيرة ومخترعاتهم الفنية تشهد بأنهم أساتذة أهل أوربا فى كل شيء.. أفردت جامعة برنستون الأمريكية للطبيب العربى الرازى قاعة كاملة وضعت فيها مؤلفاته.. وأطلقت عليها اسمه.. ونقلت أوربا عن الزهراوى أدواته الجراحية.. وسبقهم ابن النفيس فى اكتشاف الدورة الدموية. وترجمت مؤلفات مؤسس علم الكيمياء جابر بن حيان، وعن علمائنا نقل لافوزييه وبرتسلى ووليم هارفى الكثير.. وساعد البيرونى: نيوتن على اكتشاف الجاذبية.. وأعانه الحسن بن الهيثم فى الضوء والبصريات. وفى الجغرافيا والرحلات يذكر التاريخ للبحارة العرب

اكتشافاتهم.. وقد كان ابن ماجد شريكا لفاسكودا جاما.. بجانب فضل العرب على الملاحة.. باكتشاف البوصلة، البوصلة البحرية.. ويقول درابر: إنه مهما حاول الغرب أن ينكر فضل العلماء المسلمين على الحضارة الأوربية فإنه لا يستطيع أن ينتزع بصمات المسلمين على قبة السماء.. وهو يعنى بذلك دورهم في مجال الفلك.

ويواصل الأستاذ إبراهيم إبراهيم الكردى استعراضه لتأثر أوربا بالمسلمين والعرب فى مجالات الفلسفة والعمارة والزخرفة والزراعة والصناعة والعلوم والرياضيات.. وتأتى بعد ذلك اللوحات:

يبدأ بلوحة للإمام النعمان أبى ثابت، وشهرته أبو حنيفة.. ومذهبه يقوم على أصول سبعة: الكتاب، والسنة، وأقوال الصحابة، والقياس، والاستحسان، والإجماع، والعرف.. والشافعى يقول: الناس عيال فى الفقه على أبى حنيفة.

واللوحة التالية للشافعى الذى يقول عنه ابن حنبل: «ما أحد ممن بيده محبرة أو ورق إلا وللشافعى فى رقبته مِنّة» وهو واضع علم أصول الفقه، وانتشر مذهبه فى مصر والشام، ومن أشهر مؤلفاته: «الأم، والمسند فى الحديث».

واللوحة الثالثة للخوارزمى الذى كانت ترجمة كتابه (الجبر والمقابلة) أساسا لدراسات كبار العلماء الأوربيين، وكتابه (الحساب)

مرجع للرياضيين، وأسموه الفورتمى نسبة للخوارزمى، بجانب ما ألفه فى حساب المثلثات.

وتأتى بعد ذلك صورة الرازى أول طبيب يجرى التجارب على الحيوانات قبل استخدامها على الإنسان.. وجرب الزئبق فى تركيب المراهم.. وقد ألف ٢٣٢ كتابا ورسالة فى الطب والكيمياء والصيدلة استفادت منها أوربا كثيرا.

ويرسم عباس بن فرناس.. أول من استنبط صناعة الزجاج وصنع الميقاتة ـ أى الساعة ـ لمعرفة الوقت، فضلا عن أنه الرائد الأول لفكرة الطيران، ومحاولته الشهيرة للطيران لقى فيها حَتْفَهُ.

ثم البيرونى صاحب المائة والثمانين كتاباً ورسالة يعتبرها الأوربيون مراجع هامة لبحوثهم ودراساتهم، ويقول المستشرق (سخاو): إن البيرونى من أضخم العقول التى ظهرت فى العالم: أعظم علماء عصره وكل العصور.

وبعده يأتى ابن الهيثم، أول من أنشأ علم الضوء بالمعنى الحديث.

ثم ابن سينا، ومؤلفاته ٢٦٧ كتابا منها كتاب الشفاء وهو فى ٢٨ مجلدا.

ومن بعده الإمام الغزالى مؤلف إحياء علوم الدين، وتهافت الفلاسفة.

إننا أمام معرض لوحات فيها.. ابن رشد، وابن خلدون ـ عبقرى علم الاجتماع ـ والمقريزى عبقرى الدراسات التاريخية، والسيوطى صاحب الشماريخ فى علم التاريخ.. ثم يأتى بعده الجبرتى.

إننا نشد على يد الفنان الكاتب الأستاذ إبراهيم إبراهيم الكردى.. إذ أننا أمام تجربة فنية رائعة، بجانب جملة تجميع مادة كتابه من الفن.

* * *

الإسلام والهندسة

هذا كتاب عنوانه «الهندسة والإسلام» تأليف «محمود أفندى فؤاد» ولا نجد فيه إشارة إلى تاريخ صدوره، إلا أن بعض ما جاء به يثبت أنه نشر منذ أكثر من نصف قرن.. ومؤلفه متحمس للإسلام وللهندسة، كتابه ملىء بالحقائق والطرائف فيما يختص بالهندسة الإسلامية.

يقول كتاب «الهندسة والإسلام» إن الفرنسيين عندما احتلوا مصر رسموا كل الآثار العربية الإسلامية على اختلاف أنواعها، وعملوا بها (أطالس) تضم رسومات ملونة.. قام بذلك (بريس دافينى) و (برجوان).. ولا أحد ينسى ما قام به (أوفين جونس) فقد عمل أطلس قصر الحمراء بالأندلس.. والمتصفح لهذه الأطالس ممن له إلمام بفن المبانى يعجب لها وتأخذه الدهشة لجمال الفنون العربية ودقتها المتناهية الهندسية والفنية.

ويرى جوستاف لوبون فى كتابه (حضارة العرب) أنهم كانوا ميالين فى جميع فنونهم ـ خصوصا المعمارية ـ إلى تجميل الطبيعة، فهم

رجال فنون بمعنى الكلمة، يحاولون تحقيق الأحلام الخيالية الموجودة في شعرهم بما يقيمونه من مساجد وقصور. ولا يختلف اثنان في تفوق طراز العمارة الإسلامية على غيره، ولا في تفرده بالمحاسن التي تسحر الألباب؛ فقد كانوا ولا يزالون يستوحون الطبيعة في أعمالهم في الجوامع والتكايا والسلسبيلات، وفي زخرفة الصيني والقيشاني، وفي الأعمال الفنية المعمارية لا يتكلم إلا الحجر.. وكل عمل فني يتكلم لمن يعرف لغته ويستطيع «الاستماع» إليه. والفنون ميول واحتياجات ومعتقدات ممتزجة ببعضها البعض، وتعبر عن أصحابها وعن عصرهم.. والمعروف أن قدماء المصريين هم الذين اخترعوا فنون العمارة، ويعزى اختراعهم إلى (تحوت) كما يعزى إليه اختراع الحساب والهندسة والمساحة وآلات الطرب وترتيب ألحانها ووضع الموسيقا.. لقد كان أستاذ كل فن وكل علم.

ويعرض المؤلف للعرب: العادية والمتعربة والمستعربة، وكيف تطور التصميم البنائي لديهم؛ وصولا إلى عصر الإسلام، وفيه بدت ظاهرة الإبداع تسرى في الآثار والمباني، ووضحت في جامع قرطبة وغيره من الإنشاءات الكبيرة.

وفنون العمارة لها علاقة كبيرة بالرياضيات والهندسة.. وكان علم الجبر من ابتكار الخوارزمي، وهو مبتكر اللوغاريتمات. كما كانت الكيمياء من ابتكار «جابر بن حيان».. وكان ذلك كله وراء تقدم الفنون المعمارية؛ لأنها ترتبط بتقدم المعارف والعلوم. ويقول جوستاف

لوبون إن إلقاء نظرة على أثر من آثار العرب فى أى عصر متقدم: كجامع أو سراى، أو أى شيء بسيط كدواة أو خنجر أو تجليد مصحف ـ سيبهرنا العمل لتفرده، ولأنه ليس له علاقة بما لدى الأمم الأخرى..

كان الطراز العربى يرمى إلى تجميل الطبيعة انطلاقا من خصوصيات الفنون العربية التى يميزها الخيال واللمعان والرونق والزينة والألوان: ذهبية وفضية.. إن أسد قصر الحمراء كان ينسبح فى فسقية على شكل مركب.. ما أبهاه.. مبهر هو فن التصميم العربى، ومواد البناء المستخدمة لديهم تتغير وفق جيولوجيا البلدان التى يقيمون فيها البناء. فى مصر بنوا جامع بن طولون بالطوب، وبنوا جامع الحاكم بأمر الله بالأحجار واستخدموا الأسمنت (جير ورمل وطفل) فى إسبانيا، وما تزال آثار العرب الإسلامية قائمة: قصر الحمراء فى الأندلس، الجامع الأموى فى دمشق، جامع السلطان حسن برقوق فى القاهرة.. وهى تشهد بأفصح بيان وتعلن بكل بيان عن روعة العمارة الإسلامية.

ويمضى كتاب الهندسة والإسلام لمؤلفه محمود أفندى فؤاد ـ فى دراسة تفاصيل الفنون الإسلامية والعمارة، فيحدثنا عن الأعمدة.. كتلك الموجودة فى جامع عمرو فى مصر. وقد نقلت من الآثار القديمة لليونان والرومان.. ويتشابه جوهر الأعمدة القديمة فى أجزائها الثلاثة: القاعدة، والبدن، والتاج، وحليتها فى التيجان فحسب.. أما الأعمدة العربية فنرى أجزاءها الثلاثة محلاة بالنقوشات المحفورة،

ومطعمة بالسن والعاج، وتيجانها مزينة بالكرانيش والمقرنصات. وهناك العقود المكونة من أقواس، وممتزجة بخطوط مماسة لها، ومتقاطعة عند قمة العقد، وهى من مبتكرات العرب المسلمين وتنوعت أشكال العقود: العقد الستينى، والعقد المخموس، والعقود المكونة من سلسلة عقود.

أما المنائر والمآذن فهى شيء رائع.. إنها مخروطية كمنارة المسجد الحسيني.. وهى كذلك فى بلاد العجم.. وهى مربعة مثل منارة مسجد الناصر قلاوون بالنحاسين، وانتشرت هكذا فى الأندلس وهى أسطوانية كما فى مسجد محمد على بالقلعة، وفى مساجد تركيا.

والمغائر مبهرة: تدهش العقول، وتأخذ بالألباب؛ لأنها جمعت فى آن واحد بين البراعة الفنية فى شكلها، والبراعة العلمية والانشائية فى طريقة قطع أحجارها، وبنائها وحساب مقاومتها.

ونظرة للمنائر فى مصر تذهلنا. إنها من دورين أو ثلاثة أو أربعة.. إنها مربعة فى الدور الأرضى أو الأول.. مثمنة فى الدور الثانى.. أسطوانية فى الدور الثالث.. وباجتماع هذه الأشكال المختلفة بعضها فوق بعض بطرق متناهية فى الدقة والجمال ـ تتكون المنارة بشكلها البديع.

أما القباب.. ـ وصارت عند الفرنسيين كوبول ـ فهى تحفة العمارة الإسلامية: لها قمم عالية، ومنحنياتها نازلة أسفل مراكزها.. وهى تعطينا

أشكال العقود العربية.. وهى ذات مركزين أو ثلاثة.. وكلها من ابتكار الهندسة العربية.

والدلايات ـ أو فى الاصطلاح الفنى المعمارى «المقرنصات» ـ تشبه خلايا النحل، وهى ذات طبقات مصفوفة بعضها فوق بعض ببراعة فنية.. وهى ليست للزينة فقط، بل تشغل فى الهندسة المعمارية ركنا مهما، كما أنها تشغل مثله فى الهندسة الزخرفية. والمسلمون أول من استخدمها للزخرفة، وللانتقال من شكل إلى آخر.

ثم إن العرب أول من استعمل الزخرفة العربية، أو الأربيسك، وكتب عنها بيرجوان عدة مجلدات تضم لوحات: بعضها فى النجارة، والبعض فى الرخام، ومنها ما هو خاص بالتذهيب والتوريق، وما هو خاص بالزجاج.

ثم إن الكتابة العربية تشغل مركزاً هاما فى الزخرفة العربية، وقد قلدتها أوربا فى العصر الوسيط، حتى لقد عثروا على كتابة بحروف عربية على كنيسة فى ميلانو. والزخارف الإسلامية لون منها هندسى أساسه المضلعات والمنحنيات، ونوع ينشأ من الزركشة، وهى أشبه بالنباتات وطراز ناشئ من خطوط الكتابة: الكوفية والبغدادية، والكتابة الحالية بالثلث والرقعة والنسخ، ويدخل تحت هذه الألوان: النقش، والحفر، والموزاييك، وأشغال الزجاج، والنجارة الدقيقة، وأشغال المعادن، وقد أوفدت أوربا وأمريكا مهندسين وفنانين لدراسة العمارة الإسلامية وفنونها.

إن محمود أفندى فؤاد يتطرق فى كتابه (الهندسة والإسلام) إلى علوم أخرى ساهمت فى الفنون الإسلامية مثل علم الطبيعة، وعلم الجغرافيا، والطبوغرافيا، وعلم الميكانيكا والآلات، وإلى غير ذلك من العلوم.. والحق أننا أمام كتاب غاية فى الجدة والطرافة، وليت جديدا يظهر فى هذا المجال يكون إضافة لما قدمه الرواد من أمثال محمود أفندى فواد مهندس أوقاف المحلة..



دور العرب فى تكوين الفكر الأوربى

يقول غلاف هذا الكتاب إن الدكتور عبد الرحمن بدوى يس
فيه أثر العرب فى تكوين الحضارة الأوربية فى العصور الوسطى و
فى تكوين الفلسفة والمعارف العلمية وفى تكوين الموسيقا و
ودورهم فى تكوين الفكر الغربى، وهو العنوان الذى اختار
الكتاب الهام..

يرى د. عبد الرحمن بدوى أنه قد تمت عملية الإخصاب
الفكر العربى البالغ كمال تطوره وبين العقل الأوربى وهو
يقظته، وتمت هذه العملية فى منطقتين: الأولى إسبانيا فى
طليطلة بالذات، والثانية صقلية وجنوب إيطاليا، ويلقى الكتاب
الضوء على ما حدث فى المنطقتين من ترجمات للعلوم العربي
نقله العرب عن اليونان.. بجانب التعامل بين الأطراف الموجو
تلك المراكز ذات الطابع الثقافى، وذات التأثير الواضح على أور
يتحدث عن أثر الأدب العربى فى تكوين الشعر الأوربى.. وقد

الموشحات والزجل هما بداية الشعر الإسبانى نفسه، وقد انتقلت بحور الشعر الأندلسى فضلا عن الموسيقا العربية من خلال القوالب التى صبت فيها الطرز الشعرية الأوربية.

وأبرز دور للعرب فى تكوين الفكر الأوربى هو فى العلم بمختلف فروعه: الطب، الطبيعة، الكيمياء، الفلك، الرياضيات، والتاريخ الطبيعى. الفلاحة.. فى الرياضيات أدخل إليه العرب النظام العشرى فى العدد وطريقة (الغبار) فى كتابتها.. وعرفت أوربا الخوارزمى وأولاد موسى بن شاكر فى الرياضيات، وفى الفلك عرفوا الفرغانى والبلخى والبتانى والبدزجانى، وفى الكيمياء والفيزياء عرفوا ابن الهيثم وجابر بن حيان، وفى الطب الرازى وابن سينا والزهراوى، وفى التصوف كان هناك تأثير كبير لابن عباد الرفدى على الإسبانى يوحنا الصليبى، وللغزالى على دفاع بسكال عن الدين، ولابن عربى عن الكوميديا الإلهية لدانتى.. والمؤلف يقدم التفاصيل ويدعمها بالدليل.

أما دور العرب والمسلمين فى الفلسفة فهو مزدوج: دور الرسول الحامل لهم رسالة اليونان فى الفلسفة، ودور الفاعل المؤثر بما ابتكر دانتج.. وهنا يبرز دور ابن رشد بشكل واضح ومؤثر على فلاسفة أوربا.

وفضل العرب فى تكوين المعارف العملية فى أوربا كان يسير جنبا إلى جنب مع تأثيرهم فى تكوين العلوم النظرية.. فقد أدخل إليهم العرب صناعة الصابون والسكر المصنوع من القصب والورق وشرب القهوة إلى غير ذلك مما لم تكن أوربا تعرفه. وفى ميدان الزراعة ـ بعد

الصناعة ـ نقل العرب إلى أوربا الكثير من أمور الفلاح وزراعة النباتات الطبية، وفى اللغة الإسبانية عدد ضخم من الكلمات العربية المتعلقة بالنباتات، ولنجرب نطق بعضها باللغة العربية ومقابلها بالإسبانية.. الياسمين ـ الريحان ـ الباذنجان ـ اللوبيا ـ الخرشوف ـ الخروب ـ البرقوق ـ الترمس.

ويقول د. عبد الرحمن بدوى إن العرب بقوا هم كبار المعماريين حتى بعد سقوط دولتهم فى الأندلس.. وما يسمى بالفن المدجن هو فى الواقع من عمل المسلمين الذين بقوا فى إسبانيا.. و العرب هم الذين أدخلوا إلى أوربا لعبة الشطرنج.. وكلماته مازالت مستخدمة كش مات، كما أدخلوا إليهم لعبة البولو، بجانب الصيد.. فضلا عن صناعة السجاد وصبغ الأقمشة والمنمنمات والزجاج الملون. أما الموسيقا الإسبانية الفلامنكو فعلاقتها وثيقة بالموسيقا العربية، والغناء العربى.. وهذه الموسيقا الإسبانية أثرت فى كل موسيقا أوربا، وبخاصة فرنسا وألمانيا بجانب استخدامهم للآلات الموسيقية العربية، وحين يتحدث الكتاب عن أثر الإسلام على دانتى، وعن المصادر الإسلامية للكوميديا الإلهية نجد تشابها كبيراً ما بين ما فى الكتب الإسلامية عن المعراج، وما فى رسالة الغفران للمعرى وما فى كتب محيى الدين بن عربى وما بين ما فى الكوميديا الإلهية. إنه يعرض عشرات النقاط المتشابهة، ويقدم أكثر من دليل على تأثر دانتى بالإسلاميات.. كما يحدثنا عن ابن خلدون ونظرية القيمة والعمل، ويرى أن ابن خلدون قد سبق ماركس بخمسة قرون بالكثير من أفكاره فى هذا الصدد.

ويتحدث د. عبد الرحمن بدوى بعد ذلك عن العرب والتراث اليونانى، ودور العرب فى تكوينه، ويبهرنا فى حديثه عن ابن خلدون وأرسطو، ثم يتساءل إذا ما كان الكندى قد عرف اليونانية؟.. ويحاول أن يجيب.. ثم يجىء الحديث عن الغزالى ومصادره اليونانية.. والغزالى - كما يرى البعض - قد دخل فى بطون الفلاسفة ثم أراد أن يخرج منها فلم يقدر، لكن استطاع المزج والتفاعل بين الفلسفة اليونانية وبين العقائد الإسلامية فى الكتاب والسنة.

ويعرض الكتاب بعد ذلك إلى موفق الدين البغدادى ودوره فى إحياء التراث اليونانى، قبل أن يتحدث عن كتابين كان لهما أثر كبير فى أوربا.. فصل المقال لابن رشد ومشكاة الأنوار للغزالى.. ويوضح هذا الأثر.. ويختم الكتاب ببعض الاكتشافات العربية العلمية الكبيرة.. إنه يضع أيدينا على ما يَسَّرَ لماجلان اكتشافه الكبير بالدوران حول الأرض.. ويشرح لنا كيف قاس المسلمون والعرب محيط الكرة الأرضية.

إن كتاب د. عبد الرحمن بدوى (دور العرب فى تكوين الفكر الأوربى) ضوء جديد على التأثير العربى العظيم فى القرون الوسطى، وتأكيد للقول بأن حضارتهم هى صانعة حضارة الغرب الراهنة.

* * *

المدنية الإسلامية

قام الفكر الإسلامى بدور فعال فى بناء الحضارة البشرية التى كتب عنها كثيرون، منهم جوستاف لوبون فى (حضارة العرب) وآدم ميتز فى (الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى) وجروينباوم فى (حضارة الإسلام).. وكتب د. سعيد عبد الفتاح عاشور عن المدنية الإسلامية والأثر الذى تركته فى الحضارة الغربية.

يفضل كثير من المستشرقين - على رأسهم بوبخ - وصف المدنية المتجانسة التى ازدهرت منذ أكثر من ثلاثة عشر قرنا بصفة الإسلامية بدلاً من العربية، فما من ميدان للخبرة الإنسانية إلا وضرب فيه الإسلام بسهم.. بهذا القول يستهل د. سعيد عبد الفتاح عاشور كتابه، وفيه يشير إلى أن الإسلام له فلسفته ونظرته إلى الحياة لغة ودينا، وقد حافظ على أواصر الوحدة العقلية فى البلاد الممتدة من المحيط إلى الخليج، حتى بعد انحلال الوحدة السياسية، وعندما اندفع العرب فى القرن السابع لتكوين دولتهم العظيمة لم يكن لديهم تراث حضارى

شامخ، وبالذات فى ميادين الفلسفة والعلوم التجريبية والرياضيات، ولكن كانت لديهم القدرة على التعلم السريع والإفادة من غيرهم.. وهم لم يقفوا عندما توصل إليه اليونان والفرس والهنود والصينيون، بل صححوا أخطاءهم وأضافوا للبناء الحضارى طابقا جديدا؛ لأنهم ـ كما يقول لوبون ـ مفطورون على الإبداع والنشاط؛ لذلك ازدهرت مدنيتهم وحضارتهم العالمية.

ويعرض الكتاب إلى تفاصيل الحالة فى أوربا فى العصور المظلمة: دينيا ودنيويا، وعندما أفاق الغرب وجد نفسه أمام حضارة إسلامية شامخة البناء وأمام مدنية رائعة انتقلت إليها على معابر عديدة.. أهم هذه المعابر ثلاثة:

إسبانيا التى فتحها المسلمون فاتجهوا نحو إحياء الأرض الميتة، وتعمير المدن الخربة، وتنشيط التجارة الراكدة، وإنعاش الصناعة المتأخرة، حتى أصبحت الأندلس فى ظل خلافة قرطبة أغنى الأقطار الأوربية. ولقد استدعت الأندلس إليها علماء المشرق مثل أبى على القالى، وسافرت بعثات من الأندلس إلى المشرق للتزود بالعلوم والمعرفة، ثم العودة إلى الأندلس، وساهمت الكتب والتآليف فى ازدهار ثقافتها وعلمها ونهضتها.

وثانى المعابر التى انتقلت بها علوم المسلمين إلى الغرب «صقلية» فقد اهتم العرب بشئون الزراعة والرى فيها. وفى مجال الصناعة استغلوا

ثروتها الطبيعية وأدخلوا الجديد والكثير من الصناعات بجانب اتساع نطاق تجارتهم.

وكان المعبر الثالث هو الحرب الصليبية.. وهى لم تخل من اتصالات حضارية وثقافية بين المسلمين والصليبيين، فانتقلت نباتات من شرق المتوسط إلى غربه، كما انتقلت بعض العادات والتقاليد والنظم الإسلامية إلى الفرنجة، ولم تستطع أوربا أن تسفيد من التراثين العلمى والفلسفى ـ استفادة كاملة إلا عن طريق حركة ترجمة واسعة عن العربية واليونانية.. ولحركة الترجمة تاريخها الطويل، وكان الغريب ألا تهتم أوربا بحضارة اليونان إلا من خلال العرب وإضافاتهم.

وبعد هذه الموازنة ما بين أحوال الحضارة الإسلامية وما بين أحوال غرب أوربا يومئذ، وكيف تم الاتصال بينهما ينتقل الكتاب إلى دراسة أهم الميادين التى أثرت فيها المدنية الإسلامية فى الحضارة الغربية..

يرى د. سعيد عبد الفتاح عاشور أن الآداب الأوربية تأثرت بموضوعات الأدب العربى، فالقصص الإسلامى وكذلك الأخيلة الشعرية تركت بصماتها، حذا بوكاشيو حذو ألف ليلة، وكذلك شوسر، ودانتى، ولا يفوتنا أثر كليلة ودمنة.. إن قصصهم تعبر فى مجموعها عن صدى الثقافة العربية الإسلامية فى الفكر الأوربى.. مما أدى إلى مولد القصة الحديثة، ويشير بالذات إلى سر فانتس ودون كيشوت، وإلى روبنسون كروزو وجاليفر، ويلفت النظر لتأثرهم

بالمقامات العربية. وفى الفلسفة ترجمت أعمال الفارابى وابن سينا والغزالى. واتصال العرب بالغرب كان وراء حماسة أوربا لدراسة الفلسفة اليونانية، وتكفى جرأة ابن رشد الذى اعتبروه أكبر مثل لحرية الفكر ـ فيما ألقاه من نظرة خارقة على فلسفة أرسطو، حكم فيها عقله فحسب، وفتح الإسلام الباب للبحث فى ميدان العلم والطبيعة، وأصبح الاستقراء والتجربة الطريقة الوحيدة الموصلة إلى اليقين. إن روجر بيكون، ثم فرانسيس بيكون لا يرجع إليهما الفضل فى ابتكار المنهج التجريبى، فهما فى الواقع ليسا إلا من رسل العلم والمنهج الإسلاميين إلى أوربا. وكان ذلك هو الطريق الوحيد للمعرفة الحقة.. ويسهب فى الحديث عن الرياضيات وعلمائها، والفلك، ويأتى بعديد من الاصطلاحات العربية وأسماء الأبراج والكواكب والنجوم التى أخذها الأوربيون عن العربية.. ومن الطريف أن نورد بعضا منها.. الكف ـ الطرف ـ العرقوب ـ الراعى ـ كرسى الجوزاء ـ الأرنب ـ البطين ـ الوزن.

ويطرق د. سعيد عبد الفتاح عاشور باب الجغرافيا والرحلات والتجارة.. وتبرز هنا أسماء المقدسى والأدريسى وغيرهما.. وفى مجال العلوم يذهب الأستاذ دبتريكى إلى أنهم عرفوا قوانين نيوتن عن الجاذبية. توصل إليها عمر الرازى.. وعرف العرب نظرية الأوانى المستطرقة، والعدسات والبصريات وانكسار الضوء، وكانت لهم أبحاث رائعة فى المرايا والحركة والطاقة والفراغ والحرارة والكثافة النوعية.

وكتبوا عن الصوت والهواء بجانب تقدمهم فى علم الكيمياء والطب. وأبدع العرب فى الصيدلة والنبات.. وفى نظم التعليم وإنشاء الجامعات.. وفى مجال الفنون والعمارة والصناعة، وفى ميدان الموسيقا.. ثم كم كان لهم من أثر على المعنويات والأخلاقيات فى أوربا.

إن كتاب «المدنية الإسلامية وأثرها فى الحضارة الأوربية» كتاب يكشف الكثير من الصفحات المضيئة للحضارة العربية التى أثرت حضارة البشرية الراهنة.. إنه كتاب جدير بالقراءة والدراسة..

* * *

حضارة الإسلام فى دار السلام

هذا كتاب فريد فى بابه، وفى أسلوبه.. عنوانه «حضارة الإسلام فى دار السلام».. المؤلف هو جميل نخلة المدور.. وقد صدر كتابه فى مطلع الثلاثينيات، على صورة رسائل مؤلفة على لسان رحالة فارسى طوف معظم البلدان الإسلامية، فى المائة الثانية للهجرة.. أى فى القرن الثانى..

رجع جميل نخلة المدور إلى أكثر من ستين سفيرا عربيا قديما؛ لكى يتمكن من تأليف كتابه «حضارة الإسلام فى دار السلام». عدد كبير منها مخطوطات لم تطبع، وأغلبها يصعب الوصول إليه أو الحصول عليه.. إنها عشر رسائل.. كتبت الأولى منها فى بغداد سنة ١٥٦ هجرية.. وكتبت رسالة فى تونس وأخرى فى المشاعر المباركة.. وكانت خاتمة هذه الرسائل فى بغداد عام ١٨٧ هجرية.. أى استغرقت الرحلات أكثر من ثلاثين عاما، وتبهرنا الفكرة.. ونمضى معها لنكتشف إلى أى مدى كانت حضارة الإسلام فى ذلك التاريخ القديم

وليس فيما يورده المؤلف شيء من عندياته أو من خياله، بل هو ينقل عن أسانيد موثوق بها.

يقول في مستهل الرسالة الأولى «أتيت مدينة السلام فى السنة السادسة والخمسين بعد المائة من هجرة النبى ﷺ لأتخرج فى الفقه، فركبت البحر من هرمز فى ريح رخاء زجت مربكنا إلى البحرين فأطراف العراق...» هكذا تبدأ الرحلات والرسائل. لقد جاء بغداد طالب علم.. ويطوف بالبصرة، ويحدثنا عن طبائع الأعراب وكرمهم وعفافهم وأنفة نفوسهم واستنكافهم عن طاعة الملوك.. ويمر بمدائن كسرى وصولا إلى بغداد دار السلام، ويصف لنا المدينة وإقليمها وعمرانها، ويحدثنا عن محاسن الزوراء ورواج سوقها بالتجارة وجمال أحيائها بالعمارة.. وكيف اجتمعت فيها محاسن الدنيا وترفها، ويذكر تجارة البغاددة مع جميع الأمم وانغماسهم فى طيبات العيش، ويعرض لمحاسن دولة الرشيد، دولة العلم والأدب وأنه يغلب الروم ويسلط عليهم سيفه، ليس طمعا فيما يحملون إليه من الجزية، ولكن لتعزيز الملة والدولة التى تدون فى دفاترها موازنة بين دخلها وخرجها.. إن الرسائل تتوالى تحمل إشارات ـ كالسابقة ـ إلى مدى التقدم الحضارى فى تلك العصور القديمة.. وتبهرنا الملاحظات التى يوردها؛ لأنها تضع أيدينا على روائع وصل إليها الإسلام فى القرن الثانى الهجرى.

ونحن نريد أن نتوقف عند الرسالة السابعة من الرسائل العشرة التى كتبها جميل نخلة المدور فى كتابه «حضارة الإسلام فى دار السلام» ..

كتبها فى بغداد سنة ١٨٥ هجرية.. وفى مستهلها يقول: هذه رسالة أفردها لذكر آداب العرب وعلومهم، فقد شهدت مجالسهم بدار الرشيد فى محاورة فقهاء، ولقاء علماء، ومنادمة أدباء، ومناظرة مفكرين، ومراواة رواة، وسماع مغنين. ويضيف أن همم الرشيد كانت مصروفة إلى ترجمة الفلاسفة من يونان وغيرهم، بعد أن رأى جعفرا وزيره يبتاع من صانعهم ما يأمر التراجمة بتعريبه، ثم يعطيهم زنة الكتاب المعرب ذهبا.. ويزيدونها شرحا وبحثا. لقد وصلوا من الشرق إلى السند والهند، وتجاوزوا المغرب إلى أبعد من الأندلس شمالا. وما مثلهم فى رعرعة هذه الفتوح إلا مثلهم فى سرعة تحصيل العلوم وبلوغهم من المدنية ما لم تبلغه أمم العالم من قبلهم.. إنهم وجهوا هممهم إلى النظر فى فنون الأدب لتجديد ما طمس من معالم العلم، فكتبوا فى جميع فروعه وفنونه، وحمل الرشيد معه فى بعض أسفاره ثمانية عشر صندوقا من أسفارهم ليقطع بمطالعتها زمانه، مع أنه لم يأخذ إلا نخبة مما فى خزائنه، ووجدوا فى قصر بناه للتنزه خزانة كتب تحتوى على أكثر من ألف كتاب..

ويقول جميل نخلة المدور فى كتابه عن حضارة الإسلام فى دار السلام: إن العرب عربوا كتب جالينوس وأبقراط من حكماء اليونان وأطبائها، وأضافوا إليها ما استنبطوه من العلاج وما عرفوه من مركبات العقاقير، وكان العرب يعرفون «التجارة وعلم الأفلاك» وكتب الموصلى فى الإصطرلاب سفراً أودعه من علم الكواكب وسيرها وحركتها،

وبرع المسلمون فى علوم الفقه والحديث، وفى مجال اللغة وضعوا قواعدها على أصول، ودوّنَ الخليل بن أحمد اللغة مجموعة فى كتاب واحد، وأبدوا اهتماما خاصا بعلم العروض، وتفوقوا فى الشعر ونظمه، وتألق الغناء العربى، واشتهرت أسماء صنّاعه، ولمع إبراهيم الموصلى وابنه إسحاق الذى أقام طرائق الغناء من نفسه دون نقل عن كتب اليونان، وإن اقتبس تقسيمات إقليدس فقد ميز أجناس الغناء كله.

واستخرج المسلمون العلوم الفلسفية من كتب الأعاجم وقسموها إلى أنواع أربعة: رياضية ومنطقية وطبيعية وإلهية: الرياضية هى الفلك والعدد والهندسة والغناء، والمنطقية الشعر والخطابة والجدل والبرهان.. وكانت العلوم الطبيعية هى علم المبادئ وعلم السماء وعلم العالم وعلم الكون وعلم المعادن والنبات والحيوان. وفيه علم الطب.

أما العلوم الإلهية فهى السياسات والحرب والفلاحة وعلم الأخلاق.. وكانت لهم كتب فى السياسة المدنية والتدبيرات. وفى مجال الأدب اشتهروا بالبلاغة.. وخير دليل «كليلة ودمنة» كتاب ابن المقفع، ثم «ألف ليلة وليلة».. وإجماع الرأى على أنه ليس فى حكايات الناس وقصصهم وأحاديثهم ما هو أظرف من هذه الحكايات وألطف صنعا، والسندباد خير شاهد. وتوغل العرب فى الأسفار فى أطراف البلدان، وسارعوا بتدوين أخبار رحلاتهم فى الأوراق، حتى لا

تتشوه مع تمادى الأيام.. كما أرخوا للحوادث التى وقعت فى الجاهلية وما جرى بعد الإسلام بالسنين والشهور والأيام.

إن علوم العرب وآدابهم تشهد لهم بالفضل الجزيل.. وكان لهم من العلماء كثير من النقاشين والمصورين، ورأيت من رسومهم على الآنية والأعمدة والقباب.. والورق الصقيل ـ ما يبهر البشر فى إحكام الصنعة مع الحلاوة.

ولقد اكتفينا برسالة واحدة من الرسائل العشرة التى كتبها جميل نخلة المدور عن حضارة الإسلام فى دار السلام، وهو يختمها بأن العلم مرآة يرتسم فيها حال الأمم فى كل عصر ومكان.. وقد وصل المسلمون إلى ذروة عالية، وذلك شاهد ناطق ببلوغ الغاية من العمران ـ على حد تعبيره ـ والكتاب كله شاهد ناطق بالشأن الذى بلغه المسلمون فى الحضارة والمدنية.. ليتنا نضع هذا الكتاب من جديد بين يدى القراء.

* * *

العلوم عند العرب

منذ وقت بعيد أبدى الكاتب العربى قدرى حافظ طوقان اهتماما كبيرا بالعلوم عند العرب. وقد عهدت إليه وزارة التربية فى مصر بوضع كتاب فى هذا المجال، فأنجزه، ونشرته ضمن سلسلة الألف كتاب، ونحن أمام كاتب يحترم قلمه، وقارئه، وموضوعه.. وقبل كل ذلك يحترم نفسه.

بعد أن يقدم الأستاذ قدرى طوقان ـ نابلس ـ كتابه (العلوم عند العرب) يفتح لنا الباب الأول على مآثر العرب فى العلوم، ويجعلها فى ستة فصول، كل فصل منها يبحث فى موضوع محدد.

وهو يتحدث عن الطب والصيدلة بالجديد والطريف: كان فى بغداد فى زمن المقتدر بالله «ثمانمائة رجل ونيف وستون» يعملون أطباء، وكانت هناك طبيبات عربيات مثل أخت الحفيد بن زهر الأندلسى وابنتها.. وابن سينا أول من اكتشف الأنكلستوما، وكانت لهم مستشفياتهم، بل كانت لهم مستشفيات متنقلة لم يعرفها العالم بعد

ذلك إلا فى القرن العشرين.. وعرفوا التخدير من أجل احتمال الألم فى العمليات الجراحية.

والفصل الثانى عن الكيمياء.. وكان لهم فيها باع طويل.. طلوا الخشب فمنعوا احتراقه.. وصنعوا الزجاج والورق.. وكانوا أول من استحضر الكبريتيك وحامض النيتريك، وكشفوا الحامض الآزوتى.. وفى علم الطبيعة تقدموا فى الميكانيكا، وألفوا فى علم مراكز الأثقال، وعلم السوائل، ومهدوا لفكرة الجاذبية، إلى جانب بحوث الصوت وأفادتهم هذه فى الموسيقا.. ودرسوا الضوء والبصريات، والمغناطيسية والبوصلة، وفى مجال الرياضيات عرضنا لكشوفهم للصفر، وتعرفهم على الأعداد والأرقام، ثم ابتكارهم للجبر ونجاحهم فى كثير من الأمور الهندسية وحساب المثلثات والتفاضل والتكامل.. كانوا متفوقين بحق. وفى الجغرافيا لمعت أسماء الإدريسى والمقدسى وغيرهما من الرحالة، وكانت الرحلات للحج وطلب العلم وللفتوحات، ثم أضحت لذاتها وللكتابة عنها، فخلفوا لنا تراثا رائعاً من أدب الرحلات. ويختتم هذا الباب بالحديث عن النزعة العلمية فى التراث العربى، وفيها يكشف المؤلف عن المنهج العلمى الذى عرفه العرب قبل العالم كله، ومن عندهم انتشر فى كل الدنيا.

وفى الباب الثانى من كتاب العلوم عند العرب يضع لنا الأستاذ قدرى حافظ طوقان قائمة رائعة بأسماء خالدة نقف أمامها فى إجلال وتقدير.. إنهم حملة مشاعل العلم من العرب والمسلمين، تضم هذه

القائمة خمسة وعشرين اسما.. يروى الكاتب المعالم الرئيسية فى حياة العالم الرائد، ويحدثنا عن إنتاجه العلمى، وعن كتبه ودراساته وبحوثه فى تركيز شديد، ولو أننا سردنا الأسماء ـ فحسب ـ لاستغرق منا ذلك وقتا طويلا.. فما بالكم والكاتب يقف أمام حياة كل منهم وإنتاجه.. نحن إذن أمام موسوعة لهؤلاء الأعلام الرواد؛ لذلك سوف نذكر طائفة منهم، ثم نتوقف عند واحد نجد مبررا كافيا لنعرض لما ورد عنه.. كنماذج فحسب لحديثه عنهم.. إنه يتكلم عن جابر بن حيان والخوارزمى والكندى والجاحظ.. وربما نندهش للجاحظ بالذات فهو رجل أدب، لكن عبارة فى صدر حديثه عنه تقول عن ابن العميد «إن كتب الجاحظ تعلم العقل أولا، والأدب ثانيا».. ومن هذا المنطلق وضع الجاحظ بين العلماء. وكتاب (الحيوان) يكفى لكى يوضع مؤلفه الجاحظ بين العلماء.. لقد هزئ بالخرافات واعتمد على العقل.. ثم يتحدث الكتاب عن ثابت بن قرة، والبنانى، والرازى، والفارابى، والبوزجانى، وابن يونس المصرى، لقد سبق جاليليو فى اختراع رقاص أو بندول الساعة بستة قرون، واستعمله فى صناعة دقاقة، ويتكلم بعد ذلك عن الزهراوى وابن سينا وابن الهيثم والبيرونى وابن حزم الأندلسى الذى كان مجموعة مواهب وعبقريات، وله آراء علمية ونظريات فلسفية، ويُعَدُّ ـ كما قال الأفغانى ـ أحد ذهنية انبثقت عنها الأندلس، لقد ترك تراثا ضخما لم يصل إلينا منه إلا القليل، وهو يبحث فى الفقه والأدب والأخلاق والفلسفة والإمامة

والسياسة والتاريخ. ويأتى بعد ذلك ذكر كل من الغزالى وابن باجه والإدريسى وابن طفيل الذى تعتبر قصته (حى بن يقظان) فى مقدمة الآثار العربية التى تستحق الخلود فى تاريخ تقدم الفكر الإنسانى، ثم يكتب عن ابن رشد.. والخازن.. وابن النفيس.. وابن البيطار.. ونصير الدين الطوسى ومؤلفاته فى الرياضيات والفلك تكون مكتبة قيمة زادت فى الثروة الإنسانية العلمية، ودفعت بها للارتقاء، ويتوقف بعد ذلك عند ابن خلدون الذى يرى توينبى فى مقدمته أنها بداية فلسفة التاريخ وأنها أعظم عمل من نوعه خلقه أى عقل فى أى زمان وفى أى مكان.

كان هؤلاء هم رواد العلم والحضارة الإسلامية فى عصرها الزاهى.. وكانت مجالات عملهم ونشاطهم واسعة إلى درجة لا يمكن استيعابها بالكامل والإحاطة بها جميعها. إن مصادر كتاب العلوم عند العرب للأستاذ قدرى حافظ طوقان تتجاوز الستين مرجعا بالعربية بجانب الكثير من المراجع الأجنبية التى تحدثت عن حضارة العرب والمسلمين.

هو كتاب جدير بالقراءة والدرس، وليت شبابنا يعرفون أجدادهم وإسهاماتهم الحضارية الرائعة من خلال مثل هذه الكتب.

* * *

الإسلام .. وأيديولوجية الإنسان

هناك فارق بين الحضارة والمدنية، وفارق بين الحضارة الغربية وبين حضارتنا الإسلامية العربية، ويجلى الكاتب والمفكر الإسلامى الأستاذ سميح عاطف الزين هذه الفروق فى كتبه القيمة، ومن بينها «الثقافة والثقافة الإسلامية» وكتاب «الإسلام وأيديولوجية الإنسان».

يرى الأستاذ سميح عاطف الزين أن الحضارة هى مجموعة المفاهيم النابعة من وجهة النظر إلى الحياة.. أما المدنية فهى الأشكال المادية للأشياء المحسوسة التى تستعمل فى شئون الحياة.. ترى ماذا نأخذ منها؟ فى رأيه أن نأخذ من المدنية الغربية ما نشاء من أدوات العلم والصناعة: كالآلات الصناعية والزراعية، والأثاث ولوازم البيت، فهى ليست ناشئة عن الحضارة، ولا هى متعلقة بها، وحضارة الغرب تقوم على أساس فصل الدين عن الحياة، وإنكار أن له أثرا فيها، وهدف الحياة فى هذه الحضارة «المنفعة» لذلك كانت السعادة عندهم إعطاء الإنسان أكبر قسط من المتعة الحسية، ومن هنا كانت حضارتهم نفعية بحتة، لا تقيم

لغيرها أى وزن، ولا تعترف إلا بنفسها فقط.. أما الناحية الروحية فهى فردية، لا شأن للجماعة بها؛ لذلك لا تعرف حضارة الغرب القيم الأخلاقية أو الإنسانية، أما الحضارة الإسلامية فتقوم على أساس روحى من العقيدة الإسلامية، والحياة فيها تتمثل فى فلسفة انبثقت عن العقيدة التى تمزج بين الروح والمادة.. وأوامر الله ونواهيه هى المحرك لأعمال المسلم.. والعمل فى الإسلام ليس قيمة نفعية فحسب، أو مادية فقط، بل هناك أعمال لها قيمتها الروحية كالحج، والصيام، والصلاة، وقد تكون أخلاقية كالأمانة والصدق، وقد تكون انسانية مثل إغاثة الملهوف، وتبهرنا الفكرة ونديرها فى رءوسنا، ونقف عند عمل كالزكاة، ما قيمته النفعية المادية؟ قد يتصورونه من جانبهم بلا منفعة، ونراه من الأسس التى قام عليها الإسلام وحضارته..

السعادة لدى المسلم ليست فى إشباع احتياجاته، بل فى نوال رضوان الله؛ لأن السعادة هى الطمأنينة الدائمة للإنسان، وهذه بدورها تجعل من الحياة شيئا سامياً يمضى وفق مثل أعلى، ويتجسد هذا المثل فى الخضوع لله سبحانه وتعالى. وأوامره. ونواهيه. وهذا هو أصل كل الفضائل، ولم تستطع حضارة الغرب أن تضمن هذه الطمأنينة للإنسان بل سببت له الشقاء الذى يتقلب فيه عالم اليوم، ويسير على أشواكه، ويصطلى بناره.. لأنها حضارة تقف فى وجه الفطرة الإنسانية، وحضارة الإسلام لم تعتمد على المنفعة والاستعمار، بل لم تفرق بين المسلمين وغيرهم، وقد ضمنت العدالة لجميع الشعوب؛ لأنها تقوم على أساس روحى يحقق كل القيم: المادية والروحية والأخلاقية والإنسانية.

كم كنا بحاجة إلى مثل هذه الدراسة المقارنة التي كشف بها الكاتب والمفكر الإسلامى الأستاذ سميح عاطف الزين زيف حضارة الغرب المادية والنفعية، وليقدم لنا تلك الأصالة التى تميزت بها حضارة الإسلام.. وعندما يعرض لنظرة المسلمين الفاحصة للثقافة الأجنبية يرى أنهم لم يغلقوا الأبواب فى وجهها، بل فتحوها على مصاريعها بعد أن اطمأنوا تماما إلى تركيز عقيدتهم وثقافتهم عميقة فى نفوسهم.. إن المسلمين منذ فتوحاتهم إلى أن تم غزوهم فى منتصف القرن الثامن عشر جعلوا من العقيدة الإسلامية أساسا لثقافتهم. ومن هنا لم يجرفهم التيار، فالإسلام ثابت لا يتغير بتغير الزمان والمكان، وهو ـ أيضا ـ ينظم علاقة الإنسان بخالقه، وبغيره من بنى الإنسان، وبنفسه.. ولا يوجد فى الإسلام جماعة تسمى رجال الدين، وجماعة تسمى رجال الدنيا، بل الكل مسلمون أمام الدين. ويعمل المبدأ الإسلامى من داخل النفس وخارجها فى الفرد والجماعة والدولة وهى ـ أى الدولة ـ تنفذ المبدأ الإسلامى على أنها خادمة للأمة وليست سيدة عليه.. السلطان للأمة، والاهتمام بالجماعة صنو الإيمان.

ونظرة الإسلام للاقتصاد تقوم على ملكية الناس للأشياء؛ إذ هم مستخلفون فيها عن الله.. وتتحقق الملكية العامة فى كل ما كان من المرافق للجماعة أو من الضروريات للحياة العامة، فلا يجوز امتلاك المناجم والبترول، وسياسة الاقتصاد فى الإسلام مبنية على أساس تحقيق أكبر قدر ممكن من الرفاهية للإنسان باعتباره إنسانا، وباعتباره يعيش فى مجتمع لا باعتباره فردا، وحين شرع للجماعة راعى مصلحة الفرد.

وضمان الحاجات الأساسية فى الإسلام هو الأساس فى السياسة الاقتصادية، بحيث يتسنى التوزيع العادل لإشباع هذه الحاجات لكل فرد، وللرعية كلها.. لذلك جعل العمل فرضا على كل قادر.. ومن الحاجات الأساسية التى أوجبها الشرع على الدولة الأمن، والتطبيب ـ أى العلاج ـ والتعليم. لقد جعلها مثل القوت.. سواء بسواء، وهى واجبة للفقير والغنى والقوى والضعيف: فردا فردا.. ويقوم منهج التعليم فى الإسلام على أساس من العقيدة. والغاية منه تكوين الشخصية.. وإذا كانت علوم الدين ضرورة، فكذلك الطب والهندسة ومختلف العلوم الدنيوية، بجانب المعارف المتعلقة بشئون الحياة.

لقد استخلصنا هذه الأفكار من كتابات الأستاذ سميح عاطف الزين الإسلامية. وفيها يرجع إلى النبع الأصيل من القرآن الكريم والحديث الشريف، نابذا حضارة الغرب ومدنيته.. هو يريد لنا حضارة الإنسان المسلم ومدنيته.. وبها تتحقق سعادة الإنسان فى الحياتين.. الدنيا والآخرة.. وبغيرها لن يكتب النجاح والفلاح لأمة المسلمين.. إن قراءة واعية مستنيرة لهذه الكتب والبحوث الصافية يمكن أن تقودنا إلى نظرية حياتية متكاملة تستهدف خير البشرية والإنسانية وخير أمة المسلمين.

* * *

نحن العرب

تتمثل حضارتنا فى الكثير من التراث الذى خلفه الأجداد، ومن زوايا عدة يتطلع الأستاذ أنور الجندى إلى هذه الحضارة، فيلقى عليها أضواء كاشفة، تجسدها لنا، فنراها بعيوننا جلية واضحة من خلال كتابه (نحن العرب) الذى يحتوى اعترافات علماء الدنيا بهذه الحضارة.

مع الصفحة الأولى من هذا الكتاب نقرأ كلمة للمستشرق الإيطالى «غويدى» يؤكد فيها على أن الجنس العربى سيلعب مرة أخرى دورا خطيرا فى تاريخ الإنسان والحضارة.. ويأخذنا الكتاب فى رحلة من المحيط إلى الخليج لنرى الحضارة متمثلة فى مدننا.. مراكش الحمراء التى بناها بن تاشفين، وطرابلس الغرب بمناراتها، والإسكندرية وسكانها أهل رباط ونجدة.. ثم القدس ومسجد الصخرة ذو النوافذ المائة والسبعة والثلاثين من الزجاج الملون وقبة الصخرة المصنوعة من الرصاص، ثم دمشق ذات الثمانمائة سبيل وضريح صلاح الدين..

وحلب الشهباء وتدمر وحمص وحماة وبغداد.. وسامراء.. والموصل.. والكويت: استراحة خالد بن الوليد وهو فى طريقه لدك معاقل الفرس.. والبحرين، وبها للغزاة مليون قبر.

إن تاريخ هذه البقاع يحكى عن أروع حضارة للإنسان، إنه يذكر القاهرة بأبوابها.. وصنعاء بروعتها.. إنه يتوقف أمام حضارة البناء والتشييد، التى قالت أوربا عنها إنها أبنية كأنها قماش من أقمشة الشرق يوشونه وينمنمونه ويزينونه بالتزاويق والتطاريز والتخاريم.. وماذا عن الزهراء ذى الأبواب المطعمة بالأبنوس والعاج والأحجار الكريمة؟.. إنه قصر يقف على ألف ومئتى عمود من الرخام.. ومدينة الزهراء - بالأندلس - بها أربعة آلاف عمود.. وقصر الحمراء.. وقرطبة.. والدار البيضاء، ويطوف بنا معاهد العلم والمدارس: النظامية - بناها نظام الملك فى بغداد.. ثم المستنصرية وبيت الحكمة وفى دمشق الجقمقبة مدرسة صلاح الدين والعادلية والظاهرية.. وفى سالرنو بإيطاليا كانوا يدرسون أرسطو بشروح ابن رشد.. والأزهر، ودار الحكمة، ومدرسة السلطان حسن لقد كان المسلمون أعظم البنائين، وكان لديهم أعظم الأطباء.. وأعظم الصيادلة.. وأعظم الجغرافيين وأعظم الكيميائيين.. ضع كلمة أعظم وأضف إليها ما شئت حين تتحدث عنهم.. بل لقد كانت لهم ١٠٠٠ سفنية تصيد اللؤلؤ فى البحرين.

وهناك فصل كامل فى كتاب الأستاذ أنور الجندى (نحن العرب) يدور حول الثقافة العربية وروعتها.. إن أول ساعة عرفتها أوربا - الشهيرة

اليوم بدقة وقتها ـ أهداها هارون الرشيد إلى شرلمان ملك فرنسا ٨٠٧ أما الساعة المائية التى وصفها ابن جبير فى رحلاته فهى أعجوبة الأعاجيب.. إن الإسهامات العربية فى كل مجال من مجالات العلم والتكنولوجيا نعجز عن أن نستعرض ولو جانباً ضئيلا متواضعا منها.. ولعبت لغتنا دورا عبقريا فى أسلوب تفكيرنا وإبداعنا، بل يعترف شبنجلر أن تأثير هذه اللغة على أوربا كان كبيراً وفريداً؛ إذ كانت الوسيلة الوحيدة لنشر العلوم والمعارف.. وهى اليوم أقدم لغة حية.. ولم يمض أكثر من خمسين عاما على فتح الأندلس حتى أصبحت هى اللغة الشائعة المتداولة حديثا، وكتابة، وتأليفا.. إنها منذ ألف وخمسمائة عام تؤدى دورها الحضارى، وأرقام الكتب المؤلفة بها تذهلنا.. فى دار الحكمة ببغداد مليون كتاب.. وفى مكتبة الحاكم بأمر الله بالقاهرة مليون و ٦٠٠ ألف كتاب.. ومليون فى مكتبة طرابلس التى أحرقها الفرنجة.. و ٦٠٠ ألف مجلد فى مكتبة غرناطة.

ويركب أبناء الصحراء: البحر.. وإذا بأسطولهم يغطى مياهه، وإذا بفتوحاتهم بواسطته تتسع وتمتد، وإذا بأسمائهم تلمع وتشتهر.. إنهم أمراء البحر.. أو أدميرال كما سمتهم أوربا فيما بعد، صنعوا الطرادات والحراقات، وركبوا المدافع فوق المراكب، وغزوا قبرص.. وإذا بهم فى معركة ذات الصوارى. يواجهون ستمائة قطعة بحرية للروم، تنهزم ويهرب منها ما يهرب ويغرق ما يغرق.. وكان للمسلمين ـ على حد قول ابن خلدون ـ مائة أسطول فى أوربا وإفريقيا فى القرنين الخامس

والسادس الهجريين، وعندما غزا الأسطول الفاطمى السواحل الإيطالية كان يحمل خمسة آلاف محارب، لهم عشرة قادة.. لقد تحول البحر الأبيض إلى بحيرة عربية.. وأصبح للمسلمين (علم البحر) وعرفوا الإصطرلاب وقرءوا صفحة السماء ونجومها.. وبأسطولهم فتحوا إسبانيا.. بل وصل مغامروهم وهم إلى المكسيك.

إن الكتاب يمضى ليحدثنا عن حضارة المسلمين والعرب فى كل مجالات الحياة، وكيف أخذوا بيد البشرية من الظلمات إلى النور، وكيف نجحوا فى فرض هذه الحضارة ـ بتقدمها ـ على كل الدنيا. وما نقله الأستاذ أنور الجندى عن كُتَّاب الغرب اعترافا بحضارة الإسلام والعرب وثائق واعترافات بما استطاع هؤلاء الناس ـ سكان الصحراء ـ أن يصنعوه لحضارة الإنسان ثم يصل بنا إلى معاركنا الحاضرة، ويراها معارك حضارية، انتصرت فيها إرادة بناة الحضارة القديمة الأصلية، ولم ترهبهم حضارة المادة والدم التى تحاول السيطرة على عالم اليوم.

* * *

شمس الله على الغرب

سيجريد هونكه

هذا المجلد الكبير الذى تقترب صفحاته من الخمسمائة صفحة من القطع الكبير يحمل عنوان (شمس الله على الغرب) وهو يتحدث عن فضل العرب على أوربا.. إنه سفر ضخم كتبته الدكتورة سيجريد هونكه، وترجمه وحققه وعلق عليه د. فؤاد حسنين.. لعله أهم ما كتب فى موضوع الحضارة الإسلامية.

نحن فى (شمس الله على الغرب) أمام سبعة كتب فى كتاب، أى أننا سنعرض لكل كتاب منها فى دقيقة.. وذلك أمر مستحيل بالطبع.. بل إن الكتاب الأول يحتوى رسالة كتبت أصلا باللغة الألمانية، وترجمت أطرف ما فى هذه الرسالة الموجزة، إنها تحتوى على سبع وستين كلمة عربية الأصل، استخدمت فى أغلب لغات أوربا، والعالم، مثل القرنفل والقطن والنارنج والخرشوف والأرز والزعفران والكمون... الخ. ونستمتع بالقراءة عن فينيسا التى سماها العرب

البندقية، ونعرف أنها كانت وسيلة الاتصال بين الشرق والعرب والمسلمين من جانب، وبين الغرب وأوربا: اقتصاديا وعلميا وأدبيا.. والكتاب الأول يكشف عن دخول أوربا فى مدرسة العرب؛ لتتعلم على أيديهم كل شيء.. الثياب والملابس والطعام والبهارات.. الورق بل والطباعة.. البوصلة المغناطيسية والبحرية.. المدافع والبارود.. حتى العطور أخذوها عن العرب.

ويدور الكتاب الثانى حول الأعداد والأرقام والحساب، وتروى الكاتبة قصة أوربا مع الأرقام العربية وما زالت تكتب كما نقلتها أوربا عن العرب، ومن اليمين إلى الشمال فى أغلب اللغات... بجانب الصفر الذى اخترعه العرب. إن الأعداد العربية غزت أوربا، وأخذت تؤدى دورها الهام فى العلوم الطبيعية والصناعات والاقتصاد وسائر وسائل الاتصال بين الشعوب الراقية فى العالم وفى مختلف العصور، هل نتصور عالمنا بلا أرقام؟

والكتاب الثالث لسيجريد هونكه عن الأبناء الثلاثة لموسى الفلكى: محمد الذى كرس حياته للرصد والحساب، وأحمد الذى اشتهر بعبقرية الصنع وتركيب الآلات، والحسن نابغة الهندسة والخيال.. إن المؤلفة تضعنا فى هذا الكتاب أمام ثلاثة عباقرة سجلوا انتصارات علمية يندر أو يستحيل إنجازها.. إنها تضع بعضا من رسوم إنجازاتهم بشكل يبهر القارئ الغربى، ويذهله.. إنها تقول إن السماء من فوقنا كانت ملعبا للفلكيين العرب يصولون ويجولون فيه.. ويحققون من خلال

ذلك أروع الاكتشافات العلمية، التى كانت المنطلق لكل علومنا المعاصرة.

والكتاب الرابع يحمل عنوان... الأيدى الشافية.. إنه يتوقف عند طب المسلمين والعرب، وهى تورد من المعلومات حول هذا الموضوع ما يذهلنا.. إنها تتعبد فى محراب الرازى وابن سينا، إنها ترى أن كل ما استطاعت الإنسانية أن تصل إليه فى مجال الطب والعلاج والدواء وراءه جهود العرب والمسلمين الذين حققوا تقدما مذهلا، يدين به العالم لهم إلى اليوم..

نحن نلهث مع الكتب السبعة للعالمة الألمانية سيجريد هونكه حول فضل العرب على الغرب..

وكتابها الخامس يحدثنا عن سيوف العقل.. والعناوين التى اختارتها لفصول هذا الكتاب تكفينا «مداد العلماء خير من مداد الشهداء».. «الترجمة حدث ثقافى».. «الغرام بالكتب».. «شعب يتوجه إلى المدرسة».. ولكم أن تتصوروا ماذا يمكن أن يرد تحت هذه العناوين، إنه اعتراف كامل وموثق بما صنعته الحضارة العربية للإنسان والبشرية..

والكتاب السادس يعرض لأوربا، فحين تفتح عقلها للحضارة الإسلامية العربية تدخل تاريخ الحضارة من أوسع أبوابها.. لقد عرفت أوربا سبعين خريطة للعالم رسمها الإدريسى، بجانب خريطته الكبرى، ونعنى بها تلك التى حفرها على كرة من الفضة، قُطْرُهَا متران،

، وتزن ثقل رجلين مكتملين.. ومع ذلك فالإدريسى واحد من كثيرين منهم المقدسى، وابن بطوطة وابن جبير، كانوا أعظم رحالة جابوا العالم، وتدخل كلمات التجارة العربية القاموس الأوربى، وتظل محتلة مكانتها المرموقة فيه حتى يومنا هذا.. إن أصحاب رحلة الشتاء والصيف، قد عرفوا الرحلة على مدى الأعوام والسنين، حاملين دعوتهم وفكرهم وكلماتهم ـ مخزن ـ شيك تعريفه ـ حبل ـ

ونأتى للكتاب السابع والأخير.. ألم نقل إننا نلهث مع سيجريد هونكه.. وتستهله بكلمات من جوته (وجاء الحق الذى بلغه محمد. فبالتوحيد ساد العالم) حتى كلمة السيدة المحترمة فى بداية الرسائل أخذتها أوربا عن العرب. إن هذه الكاتبة والعالمة تكاد تجرد أوربا من كل شيء.. وتكاد تنسب كل شيء للحضارة العربية الإسلامية.. وهى ليست مسلمة، ولا هى عربية، لكنها تمثل ضمير أوربا حين أراد أن يستيقظ ويقول كلمة حق، وبدورنا نقول كلمة حق لهذه السيدة سيجريد هونكه.. شكرا لكل عبارة.. لكل كلمة.. بل ولكل حرف صادق، أرجعت به الحق لأصحابه وأعادت إليهم وإلى حضارتهم الاعتبار والتقدير.

* * *

الطب العربى الإسلامى

كثيرة هى الكتب الصادرة عن الطب العربى، والإسلامى، وإسهامه فى تقدم الطب عالميا وإنسانيا، ودوره الكبير فى تخفيف ويلات المرض ووقاية الناس منه، بشكل يحفظ لهم صحتهم، ويجعلهم أكثر قدرة على العطاء.. وقد اخترنا كتاب الطب العربى تأليف إدوارد براون، وترجمة أحمد شوقى حسن، ومراجعة الدكتور محمد عبد الحليم العقبى؛ كى نعرضه لكم..

المؤلف إدوار جرانفيل براون، مستشرق بريطانى، درس الطب واللغات الشرقية (العربية والفارسية) فى جامعة كامبردج، وعين زميلا بها، واختير زميلا بكلية الأطباء البريطانية الملكية، وتوفى عام ١٩٢٦ .. وهو ـ وإن كان قد ركز فى كتابه عن الطب العربى على عدد من الأطباء المسلمين، وأغفل بعضهم ـ فإنه عرض لتاريخ هذا الطب بأسلوب علمى أوضح فيه الدور الذى قام به علماء الإسلام وأطباؤه، والكتاب فى أربع محاضرات أشار فى مستهلها إلى أنها كانت فى

العصور المظلمة المورد الأساسى الذى أخذت منه أوربا ما لا نهاية له من الأفكار العلمية والفلسفية على حد تعبيره نصا وحرفا.. ويقول: إنه عندما أصبح علم الأجنة له مكانته الملحوظة كان لابد من العودة إلى التراث الإسلامى والعربى مثل تاريخ الحكماء للقفطى، وطبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة، والفهرس الكبير الذى ألفه حاجى خليفة..

ويرى أن دراسة تاريخ الطب العربى غير ممكنة إلا مرتبطة بالتاريخ العام للإسلام، الذى فتح نصف العالم المعروف وأقام إمبراطورية قدر لها أن تنافس إمبراطوريتى قيصر وكسرى، وتحل محلهما.. ويقف المؤلف عند كتاب الفهرس للعلوم الذى ألف سنة ٩٨٧م ميلادية ويعتبره مرآة ذلك الزمان أو العصر الذهبى للحضارة الإسلامية، ومع الأسى لا يوجد من الكتب المدونة فى هذا الفهرس كتاب واحد من كل ألف كتاب باقٍ ولو شذرات، فقد قام التتار بتدمير بغداد ومكتبتها، لدرجة أن ما بقى كان مجرد ظل لما كان.. وكانت مأساة للإنسانية كلها، لا للحضارة الإسلامية والعربية وحدها؛ لذلك يشعر المؤلف أن الكثير من المعلومات ينقصنا.. ورغم ذلك يقدم الكثير.. يشير إلى أول طبيب عربى ذكره القفطى وابن أبى أصيبعة.. وقد ترجما بدقة لحياة الأطباء والفلاسفة.. وهذا الطبيب هو الحارث بن كلدة الذى عاصر فى شيخوخته رسول الله عليه الصلاة والسلام.. ويعرض المؤلف إلى ما أسماه (طب النبى)، وهو مجموعة الأحادث الشريفة الموجودة فى البخارى من بينها (لكل داء دواء)، وقد نصح الرسول أتباعه بألا يزوروا

بلدا يتفشى فيه الوباء، فضلا عن بعض النصائح الخاصة بالطب والعلاج، ويتحدث عن الطب فى بغداد، ومصر، والشام. وعن ترجمة كتب اليونان فى هذا المجال، وكان من أحب مؤلفى كتب الطب إليهم: أبو قراط، وجالينوس.. وبعد ذلك بدأت إبداعات المسلمين والعرب فى مجال الطب.. ويرى براون أن العقل العربى عقل نير، وأن اللغة العربية لغة تتسم بشدة الانفعال والقوة وأنها لغة غنية ثرية استطاعت أن تستوعب مجالات العلوم كافة، ومجال الطب بصفة خاصة.

واقتصر حديث براون فى كتابه عن الطب العربى على أربعة أو خمسة من الأعلام الذين ألفوا فى الطب فيما بين عامى ٧٥٠ و ٨٥٠ ميلادية، واختار لكل منهم كتابا سلط عليه الأضواء كنموذج لعلمه وطبه.. يبدأ بـ (على بن زين الطبرستانى) طبيب الخليفة المتوكل، وكتابه فردوس الحكمة وهو فى خمسمائة وخمسين صفحة، والمؤلف الطبرستانى أمين فى كتابه؛ إذ يشير إلى مصارده اليونانية والهندية، وكتابه كان مرجعا رائعا فى الطب، ثم يتحدث عن الرازى الذى كان أعظم الأطباء المسلمين وأغزرهم إنتاجا وأكثرهم أصالة.. وقد أصبح كبير أطباء مستشفى بغداد الكبير.. وكان ممن استشيروا فى اختيار موقعها وأجرى تجربة باللحم واختار المكان الذى لا يفسد فيه سريعا. وكتاب الحاوى يفوق كل مؤلفات الرازى ترجم إلى اللاتينية، وليس هناك غير نسخة وحيدة من الترجمة فى كامبردج..

وقد تناثر الكتاب الأصلى بين لندن وموسكو وباريس ولينينجراد.. وكتابه يدل دلالة قاطعة على عبقرية فذة. وثالث الأطباء على بن العباس، ويعرف باسم ابن المجوسى، وكان معاصرا لعضد الدولة فى بغداد، وكتابه «الملكى» شهير، وطبع فى القاهرة طبعة ممتازة فى مجلدين عام ١٨٧٧ .. وله ترجمة باللاتينية، وهو فى ٤٠٠ ألف كلمة. ورابع الأطباء، وأعظمهم إطلاقا ابن سينا كما يرى براون، وهو المعلم الثانى بعد أرسطو، وبلغت شهرته أنه دعى وهو فى الثامنة عشرة من عمره لعيادة واحد من السلاطين سمح له بالتردد على مكتبته الزاخرة بالكتب.. وكتابه (القانون) أكبر كتبه حجما وأعظمها شهرة، وله ترجمة لاتينية، وتوجد منه طبعة مصرية حديثة للنص العربى، وهو يحتوى على قرابة مليون كلمة، وهو فى خمسة كتب أو أقسام، الثانى منها فى العقاقير ومرتبة حسب حروف الهجاء.

ويشير براون بعد ذلك إلى كتاب ألفه طبيب مصرى عام ١٨٩٣ هو عبد الرحمن إفندى إسماعيل وموضوعه الطب الشعبى، والمؤلف يتناول هذا الطب بالنقد الشديد، ويعتبر بقاءه فى مصر أمرا منكرا.. رغم نجاح بعض وصفاته.. ويروى براون قصصا بالغة الطرافة عن الأطباء العرب والمسلمين، وكيف نجحوا فى علاج كثير من الأمراض والحالات الصعبة والمستعصية، وهو يرجع فى ذلك إلى عديد من الكتب، منها الفرج بعد الشدة للتنوخى، ولا يفوته أن يتحدث عن الأندلس وطبيبها الشهير الزهراوى مؤلف كتاب (حياة الأطباء

والحكماء) ثم ابن رشد الذى اشتهر بالفلسفة أكثر من الطب، كما تحدث عن ابن البيطار أعظم العشابين والصيادلة.

إن كتاب الطب العربى الذى كتبه إدوار براون وثيقة طبية للتقدم الطبى العربى والإسلامى، ويحكى دور أطبائنا فى الحضارة الوسيطة التى كانت حلقة اتصال بين الحضارتين القديمة والمعاصرة..



المسلمون والعرب والفلك

الاهتمام بعلم الفلك سمة حضارية، وقد أسهم العرب في هذا العلم بصورة واضحة، كما أضافوا إليه الكثير: الرائع والمبهر.. وكتاب الدكتور إمام إبراهيم أحمد عن تاريخ الفلك عند العرب يكشف إلى أي مدى استطاع العرب والمسلمون أن يفيدوا الإنسانية في هذا المجال.

في مستهل هذا الكتاب الذي يدور حول الفلك والعلماء العرب والمسلمين يدين مؤلفه الدكتور إمام إبراهيم أحمد ما يكتب عالميا عن تاريخ العلم؛ لأنه لا ينصفنا.. وإن كان جورج سارتون يقول «كرس بعض الباحثين جهودهم لدراسة أفكار الشرق، وبخاصة عند المسلمين الذين كتبوا أنفس المؤلفات وأغناها بالنظريات الأساسية والمعلومات العلمية، فقد كتبت باللغة العربية: لغة العلم وتقدم البشرية، ما بين عامي ٧٥٠ و ١١٠٠ ويكفي أن أشير إلى بعض أسماء عربية لامعة دون أن يقابلها معاصرون في الغرب: جابر بن حيان. الكندي. الخوارزمي. الفرغاني. الرازي. ثابت بن قرة. البتاني. حنين بن إسحاق.

الفارابى. المسعودى. الطبرى. البيرونى. ابن الهيثم.. ابن يونس المصرى. الكرخى. الغزالى. عمر الخيام. إنها مجموعة رائعة من الأسماء لا يصعب أن نضيف إليها آخرين، وإذا ما قال أحد بجدب القرون الوسطى من الناحية العلمية فعلينا أن نجابهه بتلك القائمة من العلماء».

ويقول الدكتور إمام إن الفلك كعلم كان معروفا ـ وإن لم يكن شائعا ـ قبل الميلاد بآلاف السنين، ويشهد بذلك ما تركه قدماء المصريين من آثار سجلت ظواهر فلكية معينة أو تم تشييدها على أساس من الأرصاد الفلكية الدقيقة، كان هناك اهتمام بتقسيم الليل والنهار إلى اثنتى عشرة ساعة، والأسبوع إلى سبعة أيام، وتسجيل شروق وغروب كوكب الزهرة مع الشمس، ومحاولات لرصد مواقع النجوم، وتفسير الحركة اليومية للأجرام السماوية وعلى مدار السنة.. وكانت لدى العرب ـ قبل الإسلام ـ دراية بالتقويمين القمرى والشمسى، واسترشدوا بالنجوم فى سيرهم، واختاروا لها أسماء خاصة واهتموا بالقمر، وتغيير مواقعه فى السماء بين النجوم وعودته إلى مكانه الأول كل ٢٨ يوما تقريبا.. كان القمر يقطع خلال هذه المدة دائرة سماوية كاملة قسمها العرب إلى ثمانية وعشرين قسما، يحل القمر فى كل منها يوما بأكمله، وهو فى هذا أشبه بالمسافر كلما جن عليه الليل هرع إلى منزل للمبيت فيه حتى الصباح؛ لذلك سموا هذه الأقسام: منازل القمر. ومع ظهور الإسلام اتخذ الاهتمام بالفلك مظهرا

جديدا... إنهم بحاجة إليه من أجل مواقيت الصلاة.. ومن أجل تحديد شهر الصوم.. ومن أجل تحديد مواعيد الحج إلى بيت الله الحرام.. إنه بات احتياجا ضروريا.

ويتتبع الكتاب اهتمام المسلمين بهذا العلم وكيف استدعى «ما شاء الله» الفلكى المصرى للمشاركة فى اختيار موقع بغداد، ومتى يبدأ فى بنائها لتكون مدينة مباركة، ولتصبح بعد ذلك أكبر مركز علمى يسعى إليه طلاب المعرفة، ويضيف أن المنصور رأى أن خير طريق لبناء نهضة علمية شاملة أن يستفيد بما وصلت إليه الحضارات الأخرى.. فجمع حوله عدداً كبيراً من العلماء وتكاتفوا وتعاونوا لترجمة كل ما يقع تحت أيديهم من المراجع الأجنبية العلمية.

وترجم المسلمون كتابا فلكيا هنديا حرفوا اسمه إلى (السند هند)، وصار نبراسا يسير على هديه علماء الفلك العرب على مدى يزيد على نصف القرن.. وأضاف مترجماه: يعقوب بن طارق وإبراهيم الفزارى جديدا للعلم.. لقد استطاع الفزارى صنع أول جهاز يستعمل فى رصد الأجرام السماوية، سماه الأسطرلاب، وأدخلت عليه تحسينات وتوسع كثيرون فى طرق استعماله، وذلك يؤكد وجود روح التجديد والاختراع عندهم.. وبد بينوا اتجاه القبلة من ارتفاعات النجوم. وفى عهد هارون الرشيد تمت ترجمة كتاب (المجسطى) لبطليموس، أحد علماء الإسكندرية فى القرن الثانى بعد الميلاد، وكان بمثابة دائرة معارف لعلم الفلك بفروعه المتعددة، وكانت به أدلة على كروية

الأرض والسماء ودوران السماء حول الأرض. وأيام المأمون قام مرصد بغداد، وبدأ في رصد مختلف الظواهر الفلكية، ولمعت أسماء علماء كثيرين عملوا في هذا المجال، منهم الخوارزمي، وقد اشترك في قياس محيط الأرض وألف (حساب الجبر والمقابلة)، ورسم صورة الأرض بصورة أدق من بطليموس. وفي عهد الخليفة المأمون ازدهر الفلك على يد كثيرين منهم ابن قرة، وله كتاب في الساعة وقياس الوقت بالظل عن طريق المزولة.. كما ظهر البتاني الذى ترجم إلى اللاتينية والإسبانية.. وفي الأندلس نجد الزرقلي خير القائمين بالأرصاد الفلكية، وترجمت أعماله إلى اللاتينية واستقطبت مصر عددا من العلماء منهم الفرغاني وابن الهيثم، بجانب من جاءوها من المغرب مع الفاطميين، ويبرز اسم ابن يونس المصرى في مرصده بجبل المقطم.. وكان من نتيجة عمل هؤلاء العلماء أن ازدهر الفلك في مصر. وفي العراق لمع البيروني وابن سينا.. وعدد كبير من العلماء أضافوا للحضارة الكثير.. منهم على بن عيسى أشهر طبيب عيون، وشرح في مؤلف له ١٣٠ نوعا من أمراض العين، ووصف لعلاجها ١٤٣ نوعا من الدواء.

ويحدثنا د. إمام إبراهيم أحمد عن الإضافات الإسلامية والعربية للتقاويم.. وتحديد السنين والشهور.. وعن ظاهرة إثبات مولد الهلال لتحديد أول الشهر العربي.. وعن مواقيت الصلوات الخمس.. وكلها قضايا ساهم فيها الفلك حضاريا، وهو يعرض لمنازل القمر وللكواكب والبروج.. بل لا يفوته أن يتكلم عن «التنجيم والفلك» وإن كانا

مختلفين تماما.. وهو يخوض فيه إرضاء لحب الاستطلاع لدى القارئ، وليوضح الصلات التى بين الاثنين.. والتنجيم والتنبؤ من النتائج التى تنبعث من فضول الإنسان، ولاعتقاد سائد بأن حظ الإنسان يتوقف إلى حد كبير على البرج الذى ولد فيه.. وهى أمور حسمها الدين والعلم منذ وقت بعيد.

إن الإسهامات الإسلامية والعربية فى مجال الفلك دفعت بهذا العلم إلى مكانته الهامة، وكان علماؤنا مبرزون فى علمهم، وقد أعطوا الحضارة بجهودهم ـ فى علم الفلك ـ الكثير والمفيد..



فضل الإسلام على الحضارة الغربية

مونتجمرى وات

عندما نتحدث عن الإسلام والحضارة لابد أن يستوقفنا كتاب «مونتجمرى وات» الذى اختار له عنوان «فضل الإسلام على الحضارة الغربية».. ترجمه إلى العربية الأستاذ حسين أحمد أمين، وصدر عن دار الشروق منذ وقت قريب..

لقد حاول الكتاب الأوربيون فى العصور الوسطى خلق صور مشوهة للإسلام والمسلمين، وربما يكون ذلك بمثابة رد فعل لهزيمة أوربا على أيديهم فى الحروب الصليبية، غير أن هناك جهوداً جديدة للمفكرين والكتاب والباحثين خلال القرن الأخير لتكوين صورة أكثر موضوعية فى عقول الغربيين تجاه الإسلام وتأثيره على مسيرة البشرية. البعض يتجاهل هذا التأثير، والبعض الآخر يحاول التهوين من قدره. والحق أنه أجدر بهم ـ من أجل فهم أصدق وأعمق لحضارة الإنسان ـ أن يعترفوا بفضل الإسلام بصراحة.

والمسلمون ليسوا دخلاء على أوربا كما يصورهم البعض، لكن مونتجمرى وات يرى أنهم ممثلون لحضارة ذات إنجازات عظيمة، تدين لها بالفضل رقعة كبيرة من سطح الأرض كان العرب الذين وصلوا إسبانيا يمثلون إمبراطورية باتت خلال القرن أو القرنين التاليين صاحبة أعظم حضارة وثقافة فى تلك المنطقة الشاسعة من المحيط الأطلسى إلى أفغانستان.. وعندما انطلقوا من الجزيرة العربية كان لديهم القليل من الممتلكات المادية وثروتهم الأدبية لا تزيد على بعض إنجازات فى ميدانى الشعر والخطابة، كما أن مستواهم الثقافى لم يكن قد نما بدرجة كبيرة، غير أنهم بفتحهم للشام والعراق ومصر ضموا إلى دولتهم المراكز الثقافية العظيمة فى الشرق الأوسط، كما أن الكثيرين من حملة الحضارة السالفة اعتنقوا الإسلام، وبذلك بدأ اختمار ثقافى جديد.

وكثيرا ما توقع البلدان المفتوحة فاتحيها فى أسرها ـ كما حدث مع اليونان ـ لكن العرب لم يحدث لهم هذا، بل فرضوا لغتهم ومناحى تفكيرهم على معظم شعوب هذه البلدان، برغم تفوق مستوى بعضها حضاريا، ويعزو (وات) ذلك إلى الكبرياء العظيمة والثقة بالنفس اللذين يتمتع بهما العربى، ونسب جانباً من هذا الاعتزاز بالنفس إلى الإسلام الذى يرى فيه المسلمون أرفع صور عبادة الله وأتقاها على الإطلاق. وحين اعتنق الإسلامَ أُنَـاسٌ تلقوا تعليمهم فى ظل تقاليد ثقافية سابقة بات عليهم أن يمزجوا بين ما تعلموه وبين ما جاء به القرآن، وإذا

بمساهماتهم تصب فى التيار العام للفكر الإسلامى، وتشكلت بذلك ثقافة إسلامية خاصة، وكان التأثير الحضارى للإسلام على أوربا بعد فتح إسبانيا وصقلية.. ولم تكن معركة بواتييه ضربة قاضية للعرب فى إسبانيا، لكن ثورات المشرق قضت على الأمويين، وبذلك لم يتمكن المسلمون من الزحف شمالا..

والسؤال الذى يطرح نفسه على مونتجمرى وات وعلى الآخرين هو: ما الذى قدمه الإسلام للحضارة الأوربية؟ وكيف كانت مجتمعات المسلمين فى أوربا فى ذلك الزمان القديم؟ إنه يرى أن الفتح العربى الإسلامى قد جاء معه بأنماط جديدة للتجارة وجلب خبرات فنية عالية المستوى.. تتصل ببناء السفن والملاحة البحرية، فهم أصحاب فضل فى اختراع البوصلة، والبوصلة البحرية، الضرورية للملاحة، وقد استقى أهل جنوة الخرائط البحرية ـ الهامة بالنسبة للملاحين ـ استقوها من الفن الإسلامى، ومازالت كلمة أدميرال أى أمير البحر، وغيرها من الكلمات العربية مستخدمة فى القاموس الملاحى العالمى.

وفى ميدان الزراعة أدخل العرب إلى إسبانيا نظام الرى، مما سمح بزراعة نباتات جديدة تستلزم رياً وافرا: مثل السكر والأرز والليمون؛ وذلك لأن المطر فى إسبانيا قليل، فيما عدا المناطق الشمالية منها.

وفى ميدان العلوم علم العرب الأوربيين استخدام الأرقام العربية؛ إذ هم مؤسسو علم الحساب، كما جعلوا من الجبر علما دقيقا وطوروه

تطويرا عظيما.. وأسسوا علم المثلثات بجانب وضع أسس الهندسة التحليلية.

أما فى الطب فقد كانت ممارسات أوربا له ـ قبل تأثرها بالطب العربى الإسلامى ـ فجة، وساذجة؛ إذ أن الأوربيين كانوا يعتقدون أن الشياطين تسبب الأمراض. ويكفى أن كتاب الرازى ظل المرجع الوحيد للطب فى أوربا أربعة قرون، وكانت التكنولوجيا الإسلامية أكثر تقدما من التكنولوجيا الأوربية، وكان أثرياء المسلمين أكثر استمتاعا بالكماليات من الأوربيين الذين بالغوا فى بيان فضل التراث اليونانى والرومانى وتهوين شأن أثر المسلمين..

ويولى مونتجمرى وات اهتماما كبيراً بحياة المسلمين الرغدة ورفاهيتهم، ويعطى المغنى الشهير (زرياب) معنى خاصا لا فى مجال الغناء والفن فحسب، بل وفى مجال الأزياء والذوق بصفة عامة.. إنه رمز للون من الحياة لم يألفوه، وكان التنوع فى المحاصيل الزراعية والمعادن فرصة لمباهج حياتية جديدة لم تعرفها أوربا، ولم يكن ذلك قاصرا على الأغنياء فحسب بل امتد إلى الفقراء، وكان لهم نصيب فى الاستمتاع بأطايب الحياة فى إسبانيا الإسلامية، وعلى أثر ذلك نشأ كثير من الصناعات لإنتاج الكماليات للاستهلاك المحلى وللتصدير، ومن بين هذه الصناعات المنسوجات الفاخرة من الصوف والكتان والحرير، بل كانت هناك صناعة الفراء.. وحُلِّيَتْ بها الثياب أو صنعت منها، وارتقت صناعة الخزف، واكتشفت قرطبة سر صناعة

الكريستال خلال النصف الثانى من القرن التاسع، كما نافست بيزنطة فى صياغة الذهب والفضة وصناعة الحلى والمجوهرات، ويشهد تراثهم منها بالتفوق والتقدم، وقد انتقل إلى أوربا الاهتمام بالكتاب، وقد أنشأ هارون الرشيد أول مصنع للورق فى بغداد سنة ٨٠٠ م فى حين أنه لم يتم تصنيع الورق فى إيطاليا وألمانيا إلا فى القرن الرابع عشر، وكان لذلك دور كبير فى نشر الثقافة والمعرفة.

والغريب أن أوربا لم تعرف فلسفة اليونان إلا من خلال عرب إسبانيا الإسلامية على يد ابن رشد وآخرين.. وقد ساهمت الترجمة التى ازدهرت فى القرن الثالث عشر لنقل الثقافة العربية إلى أوربا ـ ساهمت فى نهضة فكرية واسعة.

الحق أن كتاب «مونتجمرى وات» الذى ترجمه الأستاذ حسين أحمد أمين بعنوان «فضل الإسلام على الحضارة العربية كتاب جدير بالقراءة والدراسة، وجدير بأن ينتشر على أوسع نطاق...

* * *

الصيدلة عند المسلمين والعرب

«الموجز فى تاريخ الطب والصيدلة عند العرب» سفر ضخم أصدرته إدارة الثقافة بالمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم أيام استقرارها بالقاهرة.. هذا السفر الضخم صدر بإشراف علم من أعلام الأدب والفكر، والطب والعلم: الدكتور محمد كامل حسين.

هذا الكتاب فى قرابة الخمسمائة صفحة، ومراجعه وحدها فى عشرين صفحة كاملة، من القطع الكبير.. ومن هنا ندرك أننا أمام عمل كبير بحق، وأنه يستحق الوقوف عنده طويلا: طبا وصيدلة. ولما كانت الكتب الصادرة عن الطب العربى والإسلامى كثيرة ومتعددة ـ أردنا أن نعرض للجزء الخاص بالصيدلة، بشىء من التفصيل، إذ يحتاج إلى أن نسلط عليه الضوء؛ لنجلوه ونوضحه، وقد اشترك فى تأليف هذا الجزء كل من الدكتور عبد العظيم حفنى صابر، والدكتور عبد الحليم منتصر من العمداء السابقين لكلية الصيدلة، والأديب الدكتور جورج شحاته قنواتى مدير معهد الدراسات الشرقية للآباء الدومنكيين.

والمقدمة تعرفنا بالصيدلة كعلم وفن وصناعة الدواء، وتتطلب دراسة علوم كثيرة كالعقاقير والكيمياء بفروعها، وقد ازدهرت فى عهد مصر القديمة، وكان الاهتمام بها كبيرا، وصولاً إلى عهد ترجمة كتبها فى العصر العباسى. ويورد الكتاب ١٢ مرجعا عربيا قديما فى الصيدلة، مثل الحاوى للرازى، والقانون فى الطب لابن سينا، والجامع لمفردات الأدوية لابن البيطار، والصيدلة فى الطب للبيرونى، وتذكرة داود الشهيرة للأنطاكى.. وقد عُنِىَ العرب بالدواء، وقد دخلت الكلمات العلمية التى أبدعوها فى مجال الصيدلة قواميس اللغات الأوربية، وتشغل هذه الكلمات صفحات ثلاثا كاملات، وتبهرنا المقابلة الطريفة بين بعضها.. ومن أمثلتها ـ عنبر ـ مسك ـ تمر هندى ـ صندل.

ويعرض موجز تاريخ الصيدلة عند العرب لتحضير الدواء لديهم، والأدوات المستخدمة من أجل ذلك، وقد نقل أغلبها إلى أوربا مع الموازين والمكاييل الدقيقة المستخدمة فى هذه العملية الهامة والضرورية.. واستخدم العرب الأدوية المركبة والمستحضرات بأشكالها المختلفة من دهون وشراب وأقراص إلى غير ذلك، بل توصلوا إلى الفوارات والحقن والسفوفات والسعوطات واللعوقات والمعاجين والمغليات.. وحين يحدثنا الكتاب عن السبق الإسلامى والعربى إلى هذه الأمور يورد بانتظام معانى الكلمات العربية باللغة اللاتينية، ويدهشنا التقارب الذى يؤكد على نقلهم لهذا العلم والفن والصناعة عنا.

ويسرد الكتاب عدة أسماء لمعت فى مجال الصيدلة العربية والإسلامية.. وبدأ بالكندى ابن أمير الكوفة الذى أثر فى الفلسفة الإسلامية، وله ٢٣٠ كتابا منها ٢٢ كتابا فى الطب والصيدلة، وكان العبادى يجيد أربع لغات: السريانية والفارسية واليونانية والعربية، ونشط إلى ترجمة نوادر المخطوطات، وله اهتمام خاص بطرق تحضير الأدوية المركبة لعلاج أمراض العين من مراهم وقطرات وأكحال، وفن استعمالها، أما المجوسى فى كتابه «الملكى» فقد قصر جزأه الثانى على الصيدلة، وجعلها فى ثلاثين بابا.. تحدث فيها عن الأدوية المفردة. وتقسيمها وأنواعها، كما يتحدث عن الأدوية المركبة، ويقسمها إلى أبواب، منها باب عن أدوية السمنة والريجيم، ويعتبر فردوس الحكمة أهم كتب الطبرى فى الصيدلة، وأقدم كتاب جامع لفنونها، وهو فى ٣٦٠ بابا.. عالج فيها الأمراض من الرأس حتى القدم، وتعرض لعلم الجنين والولادة، وللسموم، وعلاماتها، وعلاجها. أما الرازى، فإن كتابه الحاوى فى التداوى قد ترجم إلى اللغة اللاتينية، ويقول عنه ديورانت فى قصة الحضارة إنه ظل عدة قرون أعظم الكتب الطبية وأهم مرجع لهذا العلم فى بلاد الرجل الأبيض، وصورته معلقة بكلية الطب بباريس، وعلقت بباريس كذلك صورة ابن سينا الذى يعتبر كتابه (القانون فى الطب) من خير ما تتيه به الحضارة العلمية الإسلامية فى هذا الفن كما يقول الكتاب.. وقد ترجم إلى اللاتينية وعدة لغات أوربية وطبع فى أوربا ١٥ مرة.

ويتحدث الكتاب كذلك عن البيرونى والزهراوى وابن ميمون وابن البيطار إمام العشابين، واشتهر بكتابين: الجامع لمفردات الأدوية والأغذية، والمغنى فى الأدوية المفردة، وهو فى العقاقير. وللأمانة العلمية يورد الكتاب اسم كوهين العطار الذى عاش فى مصر فى القرن الثالث عشر، ونشر كتاباً فى الصيدلة عنوانه (منهاج الدكان ودستور الأعيان) فى تركيب وأعمال الأدوية النافعة للأبدان.. ويختم الكتاب حديثه عن الصيادلة العرب بأشهرهم.. داود الأنطاكى.. صاحب تذكرة داود.. وكان أستاذاً بدون شك فى هذه الصنعة، أمينا فى نقد أسلافه، مجددا فيما كتب من دواء، وإن شايع العامة فى بعضها.

وموجز تاريخ الصيدلة عند العرب يقدم فصلا إضافياً عن أثرها على أوربا.. وركز على مدارس ثلاث: سالبرنو.. التى ترجمت عدداً من الكتب العربية للاتينية لتدريسها، ومدرسة صقلية التى نزل بها العرب، فنقلت عنهم الكثير، وبالذات عن الرازى وابن سينا، وكانت المدرسة الثالثة هى الأندلس: وترجمت ونقلت الكثير من علوم الصيدلة العربية، وكانت هذه الكتب فى متناول أيدى الطلاب. الأمر الذى أتاح لها فرصة انتشار واسع فى مختلف جامعات أوربا، وتأتى بعد ذلك ثلاثون صفحة كاملة عن المصطلحات العربية المستخدمة فى الصيدلة ومقابلها فى اللغات الأوربية كلون من التأكيد على الأثر الكبير والعميق للصيدلة العربية فى العلوم الأوروبية.

* * *

مآثر العرب على الحضارة الأوربية

هل تعرفون أول كتاب طبع في تاريخ إنجلترا؟ وكم ملك الصاحب ابن عباد من الكتب؟ ومن قال وأكد أن البارود اختراع عربى؟ وماذا قال «توينبى» عن «ابن خلدون»؟.. إجابات هذه الأسئلة كلها، في الصفحات الأولى لكتاب مآثر العرب على الحضارة الأوربية للأستاذ جلال مظهر.. وقدم له كمال الدين رفعت، وسعد عفرة.

أول كتاب طبع في تاريخ إنجلترا ـ كما يقول سير هاملتون جب ـ كتاب ألفه مبشر بن فاتك في مصر، ويحتوى على مجموعة من كلمات الفلاسفة. ترجم إلى الإسبانية. واللاتينية.. ثم الفرنسية، فالإنجليزية؛ ليصبح أول كتاب مطبوع في إنجلترا. وكان الصاحب بن عباد يمتلك وحده ـ في القرن العاشر ـ كتبا تزيد على كل ما تمتلكه منها أوربا ومكتباتها مجتمعة ـ كما يقول ول ديورانت ـ ويضيف أنه كان في ألف مسجد منتشرة من قرطبة إلى سمرقند علماء لا يحصيهم العد، ويؤكد جوستاف لوبون أن البارود اختراع عربى،

وأسس فردريك الثانى جامعة فى نابولى، وجعل منها أكاديمية لنقل العلوم العربية إلى العالم الغربى.. وألقى جابر بن حيان ظله على كل العالم بعلمه.. باعتباره واحدا من مؤسسى النهضة العلمية، أما توينبى فيقول إن ابن خلدون ومقدمته وفلسفته للتاريخ أعظم عمل من نوعه ابتكره عقل فى أى زمان أو مكان.. ويضيف روبرت فلنت أن أفلاطون وأرسطو وأوغسطين ليسوا من أنداد ابن خلدون. الآخرون لا يذكرون بجانبه.. كل ذلك فى مجموعة صفحات قليلة يستهل بها الأستاذ جلال مظهر كتابه.

وقبل أن يبدأ فصله الأول الذى يلقى فيه نظرة تاريخية على نشوء الحضارة العربية وأسباب عظمتها.. وفى سبيل ذلك يتتبع تاريخ الحضارات. إن إليوت سميث يقول إن الشعب المصرى القديم هو الذى أخرج الإنسان من حياة الكهوف، ووضع حدا للعصر الحجرى، وسارتون يرى أن العلم اليونانى كان إحياء ـ أكثر منه اختراعا ـ فقد سبقته الجهود العلمية فى مصر وبين النهرين. وينقل لنا الكتاب بعضا مما جاء فى قصة الحضارة التى وضعها ول ديورانت.

إن الجزء الرابع يتحدث عن العبقرية الحضارية العربية، وعن التعليم، واللغة، والعلم، والمكتبات عند العرب بشكل مبهر.. كان فى بغداد مائة مكتبة لبيع الكتب عام ٨٩١ ميلادية.. وألحقت المكتبات العامة بالجوامع.. وعندما اجتاح التتار بغداد كان بها ٣٦ مكتبة عامة.. ولما مات الواحدى ترك ستمائة صندوق من الكتب يحتاج كل صندوق

إلى رجلين لحمله. وكانت القاهرة والإسكندرية والقدس وبعلبك وحلب ودمشق والموصل ونيسابور ـ تزدهر بمدارسها.. أما بغداد فكان بها ثلاثون مدرسة: التعليم والطعام والعناية الطبية فيها بالمجان، ويمنح الطالب دينارا ذهبيا كل شهر.. وتعلمت المرأة فى هذه المدارس وأصبح الناس من الخليفة إلى أقل مواطن طلابا للعلم يسافرون عبر قارات ثلاث ثم يعودون إلى ديارهم وكأنهم نحل تشبع بالعسل ليفضوا بما جمعوا من محصول علمى ثمين إلى حشود التلاميذ المتشوقين إلى العلم والمعرفة. وكانت المبادئ السامية التى قامت عليها أسس الدولة العربية وأدت إلى هذه الوحدة الكبرى وهذا النشاط الفكرى الذى لم يسبق له مثيل فى تاريخ الإنسان ـ من أجل حماية الرعايا بغض النظر عن معتقداتهم الدينية أو أجناسهم أو ألوانهم.

إن كتاب مآثر العرب على الحضارة العربية للأستاذ جلال مظهر وثيقة إنسانية، إذ هو ينقل هذه المآثر عن الذين انتفعوا بها، إنهم شهود على ما حدث.. والكتاب يرتفع لذروة شامخة حين يعرض لأثر الفكر العربى على الفكر الأوربى. ونحن لا نستطيع أن ندرك تأثير العرب فى الغرب إلا إذا تصورنا حالة أوربا عندما أدخل العرب الحضارة إليها.. وبالذات فى مجالات العلوم والفنون والأخلاقيات.. كانت حضارة الأندلس ساطعة، فيما سكنت الثقافة أبراج أمراء متوحشين أميين. وكان تسلل المناهج الأدبية العربية إلى أوربا فى القرون الوسطى هو

السبب فى ظهور حركة أدبية فيها.. ويشير جب إلى تأثير ألف ليلة وليلة ـ كمثال ـ على الأدب فى أوربا ويراها وراء ازدهاره ونجاحه.

وعندما يتحدث الكتاب ـ عن العلم عند العرب وأثره على الغرب يرجع إلى سيديو وكتابه تاريخ العرب العام، يدلل على ذلك الأثر بعشرات الكلمات العربية العلمية التى دخلت قاموس أوربا فى ذلك الحين.. إن معجم أكسفورد اللغوى التاريخى يورد عشرات الكلمات العربية الأصل والتى أصبحت تستخدمها أغلب لغات أوربا الحديثة مؤكدة بذلك أن هذه الكلمات لم يكن لها أصل، والمادة ذاتها لم يكن لها وجود.. ومن أمثلة ذلك ـ القطران ـ الكحل ـ الكيميا ـ زعفران ـ كانت اللغات الأوربية خالية من الكلمات العلمية المقابلة لما لدينا، فنقلوها عن اللغة العربية وانعكس الوضع اليوم.. لكن ذلك يؤكد السبق العربى فى مجالات كالصيدلة التى يراها جوستاف لوبون اختراعا عربيا.. ومن كلماتها: قهوة ـ قطن ـ ليمون ـ سكر.

ويفرد المؤلف فصلين للحديث عن الطب العربى، وعن الرياضيات، والفلك.. ويفرد ثلاث صفحات كاملات عن الكلمات العربية فى علم الفلك التى انتقلت إليهم.. ويعرض للتاريخ.. و الرحلات والفنون التطبيقية.. وكلها سبق فيها العرب. ويتوقف فى فصل كامل عند العمارة والفن وأثرهما فى أوربا ويشير إلى قصر الحمراء، ويقدم لنا عدة لوحات بالغة الروعة والجمال من هذا القصر ومن مسجد قرطبة،

دلل بها على مدى تغلغل هذه الفنون العربية الإسلامية فى أوربا.

والحق أن هذا الكتاب (مآثر العرب على الحضارة الأوربية) للأستاذ جلال مظهر ـ يعد من أوفى المراجع الخاصة بالحضارة الإسلامية والعربية؛ إذ حفل بالمراجع وبالمادة المستفادة من أوربا اعترافا بهذا الفضل..



الحضارة العربية

(هيل)

هناك كتابان يحملان نفس العنوان: «الحضارة العربية».. أولهما للدكتور شكرى عياد، وصدر كتابه عام ١٩٦٧ والثانى ترجمة د. إبراهيم أحمد العدوى عن البروفسير «هل»... وسنعرض للكتابين، كُلٌّ على حِدَةٍ؛ لنتعرف على منهجى المؤلفين.. ومادتهما.. وأسلوبهما.. ونحن الآن مع كتاب البروفسير هل..

بداية هذا الكتاب كانت ست محاضرات ألقاها البروفيسير «هل» فى ميونيخ عن تطور الإسلام ورسالته ثم طورها ونشرها بالألمانية، ثم ترجمها للإنجليزية الأستاذ خوابخش. وقد سهلت للدكتور العدوى مهمته.. وأعانته على ترجمة هذا الكتاب الذى استوفى موضوعه، وألم بنواحى الحضارة الإسلامية وجعل عناوين فصوله: بلاد العرب قبل الإسلام. محمد (ﷺ). عصر الفتوح. الأمويون. بغداد ـ المغرب والأندلس. وتشهد الدولة القديمة على أن العرب لم يكونوا بأية حال

من الأحوال شعبا همجيا؛ إذ عاشوا فى ظل نظام قبلى يعتمد فيه الفرد على حماية جماعته، لكن بلاد العرب فى القرن السابع لم تكن تنتظم دولة موحدة، ولم تقم مطلقا أية ديانة تمثل ما أحدثه الإسلام فى صورة سريعة ومباشرة من تغييرات كان لها تأثير فى شتى أنحاء العالم، كما لم يحدث أن صار رسول أية ديانة جديدة سيد زمانه وأهله مثلما أصبح عليه محمد..

وبدأت منذ ظهور الإسلام الصلاة العامة أو المفروضة، الغنية بشعائرها، ثم قامت صلاة الجماعة التى أداها المسلمون وراء إمام وهم مجتمعون صفوفا، يؤدون ركعاتها وسجداتها فى تناسق مدهش، وفى نظام ووقار، ومن يراهم فى صلاتهم لا يمكن أن يغفل ما كان لهذه الصلاة المنظمة من قيمة تربوية فى نفوس المسلمين منذ أول الأمر، فقد كان العربى أبيا يفتقر إلى الشعور التام بالطاعة؛ لذلك غدا مكان الصلاة أول ميدان حقيقى للتدريب العسكرى، ثم إن انتظام المؤمنين فى الصلاة شجع روح الوحدة بين المسلمين، وخلق بينهم الشعور بالمساواة التى كانت فكرة جديدة على العرب، وكانت رابطة الدم فحسب هى التى تجمعهم، ومهد محمد ﷺ لوحدة تقوم على المساواة الاجتماعية، وأصبحت مساعدة الفقير والقيام بأمره واجبا مقدسا، ولم يعد من شأن الأفراد أن يعطوا كيفما شاءوا، وإنما غدت الزكاة فرضا، يُجْبَى إلى بيت المال، وينفق منه على الفقراء وشئون المسلمين.. وكان مسجد الرسول بسيطا، وإذا به يصبح على مدى

القرون النموذج الأصلى لعمائر المساجد العظيمة التى شيدت فى الإسلام... كما أن تنظيماته التى أملتها عليه المطالب العاجلة غدت أساس بناء الصرح السياسى للدولة الإسلامية.

ويسرد الكاتب حياة الرسول ﷺ بطريقة عقلانية لا تمت بصلة بما أوحى إلى الرسول أو بما نزل عليه من السماء، والأسلوب مقنع لمن لا يدينون بالإسلام، ولمن لا يعرفون عنه الكثير، وينبهر الكاتب بشخصية الرسول، قائدا وزعيما وسياسيا، وتستوقفه أمور يحكم عليها بأسلوب عصرى، ومع ذلك يجدها ذروة فى فهم البشر، وإدارة المعارك، وصولا إلى تحقيق الأهداف...

ويشهد البروفسير هل بانتخاب أبي بكر خليفة للرسول ﷺ، ويرى فى ذلك استمراراً للرسول، فلم يراع فى هذه البيعة مبدأ الوراثة، ولم تلعب صلة القربى أى دور، واستمد أبو بكر سلطته من البيعة العامة، وبدأت فى عهد أبى بكر فتوح الإسلام المظفرة التى مهدت الطريق للحضارة الإسلامية.. والسؤال: كيف تمكن شعب غير خبير نوعا ما بفنون القتال من هزيمة القوات الحربية التابعة للبلاد المتحضرة المجاورة له؟؟..

والمؤلف يرجع ذلك إلى العوامل الاجتماعية والمعنوية العميقة التى شدت أَزْرَ الجيوش العربية، وإلى التنظيم والعدة، والقوة العددية، وإلى مواهبهم التى إستيقظت، وتفتح أذهانهم وما استكملوه مما كان

ينقصهم من ذات الفنون، وظهرت فى المدينة أولى مدارس التشريع الإسلامى، ويعتبر ابن مسعود وابن عباس مُؤَسِّسَى مدرسة المدينة، وارتبط الفقه والتشريع بالقرآن الكريم، وامتد الاهتمام بكتاب الله إلى الناس عامة، وبذلك بدأ اهتمامهم بالتعليم، وبذلك نشأ فى قلب بلاد العرب ـ نتيجة الإسلام ـ الدوافع التى أدت إلى ازدهار الثقافة وترعرعها فيما بعد.. وقد تمثل العرب ثقافات البلاد التى فتحوها، فى الوقت الذى ازدهرت فيه ثقافتهم فى تلك البلاد.. والثقافة عماد الحضارة.. وغدت مكة والمدينة فى منتصف القرن الأول الهجرى مدرسة العرب فى الموسيقا والغناء، وسار الشعر خطوة فخطوة إلى جوار الرفاهية، حتى لقد فاق ما فى هذا الشعر من نسيب وتشبيب ما فى (التروبادور).

ويمضى المؤلف مع الأمويين، ويروى تاريخهم مع الثقافة، وكيف قام الشعر فى عهدهم بدور الصحف الحزبية.. وأشاع استخدام الفرس والشام والقفط والبربر اللغة العربية، ووضعوا مواهبهم فى سخاء لخدمة العروبة، وتلاشت يومئذ القوميات، وأصبحت كلمة «عربى» تعنى كل مسلم يكتب العربية ويتكلمها.. سواء كان شاميا أو مصريا، وكان ذلك فى رأيه أهم حدث فى تاريخ الحضارة الإسلامية.. فالفرس والبيزنطيون والأقباط كانوا قد ترددوا فى سبات عميق وأصبحوا عاجزين عن الابتكار والسير وحدهم فى طريق التقدم، ولكن اتصالهم بالعرب هز كيانهم وأيقظهم..

ويأتي بعد ذلك دور بغداد فى الحضارة العربية الإسلامية ـ كما يرويه البروفيسير هل، وكما ترجمه د. إبراهيم أحمد العدوى.. والمؤلف يفسر الكثير بمنظور غربى؛ لذلك يقع ـ رغم اجتهاده ـ فى عدة أخطاء، لكن بحثه ودراسته يكشفان عن زوايا جديدة يمكن النظر من خلالها لحضارتنا.. إنه يحدثنا عن دور الأسواق، والتجارة فى الحضارة.. وأهم من ذلك دور الصناعة التى ازدهر منها صناعة الورق والزجاج والعطور وغيرها. وظهر نوع من المدارس الإلزامية، وفى المسجد درست شتى فروع المعرفة حتى لقد أصبح المسجد جامعة الإسلام وتطورت العلوم الدينية والشريعة والطب وعلوم الطبيعة والفلسفة والرياضيات والكيمياء.. ولم يكن نجاحهم فيها على درجة واحدة. والمؤلف يرى أن سقوط بغداد فى يد التتار وتخريبها لم يترتب عليه زوال الحضارة الإسلامية، بل ظلت تسير فى مجدها الأدبى المنفرد فى شمال أفريقيا.. وفى الأندلس التى خصها بالفصل الأخير من كتابه.. وبذلك تمت المحافظة على تراث الفنون.

لقد تتبع كتاب الحضارة العربية تاريخ تلك الحضارة، وهو خلال التتبع يسلط الضوء على هنات قوتها وضعفها، ويعترف لها بإسهاماتها الإنسانية الرائعة، ويراها كامنة تحت الرماد تنتظر بعثا جديدا.

* * *

الحضارة العربية

(د. شكرى عياد)

دُعِيَ الدكتور شكرى محمد عياد عام ١٩٦٤ ـ وكان يعمل مستشارا ثقافيا في البرازيل ـ ليلقى بعض المحاضرات فى إحدى الجامعات، وكانت مراجعه ـ لحسن الحظ أو لسوئه ـ قليلة، فقدم خلاصة مركزة لموضوع في عرض عميق.. وهذا لا يعنى أن دينه كان قليلا لبعض الكتب الهامة، ومنها «تاريخ الإسلام السياسى» و «النظم الإسلامية» لحسن إبراهيم حسن، و «الإسلام وأصول الحكم» لعلى عبد الرازق.. و «العرب فى التاريخ» لبرنارد ولويس، و «تاريخ الشعوب الإسلامية» لبروكلمان، وهناك أيضا «الحضارة الإسلامية» لآدم مينر، و «تاريخ الفلسفة فى الإسلام» لدى بور، و «الإسلام فى العصور الوسطى» لفون جرونباوم، بالإضافة إلى مقدمة ابن خلدون وكتب أحمد أمين: فجر الإسلام، وضحى الإسلام، وظهر الإسلام. وقد آثرنا أن نحشد عناوين هذه الكتب ـ رغم قلة ما كان بين يدى المؤلف ـ

لندرك إلى أى مدى شغلت حضارة العرب والإسلام المفكرين والكتاب، وكيف ظهرت عنها عشرات الكتب الواسعة الانتشار. ولا يتجاوز كتاب د. شكرى عياد فى دراسته النقاط التالية: مفهوم الحضارة العربية.. الدين.. أشكال المجتمع وطبقاته.. نظام الحكم. الأدب والفن. التفكير العلمى. بين الماضى والمستقبل. وفى مفهوم الحضارة يقدم لنا تعريف «ديورانت لها.. إنها نظام اجتماعى يعين الإنسان على الزيادة من إنتاجه الثقافى.. وفى تعريف آخر.. هى أشكال معينة تتبعها جماعة إنسانية وتؤلف فى مجموعها «طريقة الحياة».. وهى طريقة حياة تقبلها هذه الجماعة، وتتسم بخصائص معينة، منها استخدام الكتابة، ووجود المدن، وقيام تنظيم سياسى عريض، ونمو التخصص المهنى، بحيث يمكن القول إن كل حضارة من الحضارات تنطوى على أسلوب معين فى مواجهة الواقع.

والدين هو أول مكونات الحضارة العربية؛ لأن وحدة الجماعة العربية لم توجد إلا مع ظهور الإسلام.. الذى هو بإجماع علمائه: إيمان وعمل. عقيدة وسلوك، ونظرة المسلمين إلى الحياة هى أساس حضارتهم.. الإسلام يرى أن الإنسان مهيأ للخير والشر على السواء، وكثيرا ما يذكر القرآن الكريم نعم الحياة الدنيا برهانا على رحمة الله، ويدعو المؤمنين إلى التفكير فى جمال الخلق والتمتع بطيبات ما أحل الله، والتشريع وثيق الصلة بالحياة والواقع، وكان المجتمع العربى قبل الإسلام مجتمعا أبويا، ورابطة الدم أساس تكوين جماعاته، ومع ذلك

كان الحروب متصلة بين القبائل. وكان قيام مجتمع المدينة على أساس التآخي بين المهاجرين والأنصار بداية عصر جديد فى التاريخ العربى، ولم تظهر حكومة عربية بالمعنى الصحيح إلا عندما جمع الرسول الكريم قبائل العرب تحت راية الإسلام، وهى سلطة إدارية وتشريعية وقضائية معا، على أن هذه السلطة لم تكن تسلطا، وقد حث القرآن على الشورى.

ويعرض د. شكرى محمد عياد تاريخ النظم السياسية فى الحضارة العربية، ويراه أحفل جوانبها بالملكية، حتى لقد أوشكت أن تتبخر فوق المساحات الشاسعة التى افتتحتها أو تتسرب فى تلك الأعماق البعيدة.. لكن شعوبا عربية كانت تتكون، وكانت ولا تزال تنسج حضارتها المشتركة من عناصر واحدة.. هى الدين واللغة والفن والأدب، والتشريع الذى استمد أصوله من الكتاب والسنة معتمدا على القياس والرأى. ثم يتطرق للحديث عن الفن.. وما كان العرب يعرفون فى العصر الجاهلى فنا سوى فن الكلمة، ودل غياب الفنون التشكيلية على نزعة العرب الطبيعية نحو التجريد، تأثرا بالصحراء المليئة بالإيقاع المنتظم والصوت المبهم.. إنه شعور بالموجود الكلى، اللامحدود واللامحسوس.. ولا شيء كالصوت الإنسانى يمكن أن يعبر عن روعة الإنسان أمام الكون.. عن أمله فى الخلاص. عن انفعالاته العنيفة الملحة فى قربها الشديد من الطبيعة وفى عمقها.

ولم يعرف الشعر العربى الشكل الملحمى ولا الشكل الدرامى حتى العصر الحديث، ولكن النثر العربى ملىء بالقصص، وتأثر كثيرا بالقرآن الكريم... وكانت طريقة القصاصين الدينيين قد ساهمت فى طبع القصة العربية بطابعها.. ثم مضت القصة تستمد من مصادر كثيرة، وثقافات متنوعة، ودخلت فى تصانيف كثيرة الأدب والأخبار والنوادر، وشاع عنوان الفرج بعد الشدة لدى عدد كبير من الكتاب، وتخصص آخرون فى قصص الحب، وبلغت القصة الشعبية قمتها فى ألف ليلة.. كما ابتكروا المقامة، وترجع بدايتها لبديع الزمان الهمذانى فى القرن الرابع، وتصل قمتها فى مقامات الحريرى فى القرن الخامس، ثم تجلى الخلق فى السير الشعبية كالهلالية وغيرها. وقد ثبت أن هناك مرونة عجيبة فى قدرة الخلق الفنى عند العرب.. كانت الفنون التشكيلية بلا تاريخ قبل الإسلام، وخاف المسلمون الأوائل من ممارستها؛ ومن ثم غلب عليها الطابع الزخرفى، وخلق الفنان العربى من الشعر لوحاته، ولما تعلموا العمارة نما نمطهم الخاص الذى عاد فأثر فى الفن الأوربى.. وفى كل الأحوال ظل الفن العربى مخلصا لأفكاره وطرقه فى الحياة، ولعل أعظم تراث خلفه هو ذلك الاتزان الرائع بين النافع والجميل..

وينتقل د. شكرى محمد عياد للحديث عن التفكير العلمى.. وفضل العرب فى شق الطريق إلى المنهج التجريبى الذى يُعْزَى إليه الفضل الأكبر فى تقدم العلوم الطبيعية فى أوربا الحديثة.. والمؤلف لا

يحصى مآثر العرب فى التفكير العلمى، إنه يحاول أن يستخلص أسلوب التفكير العلمى باعتباره من مكونات حضارتهم.. والسبيل إلى ذلك رأيهم فى العقل الإنسانى وطريقة عمله وقيمة المعلومات التى يصل إليها ومصادرها وصلتها بالواقع.. كل ذلك يندرج فيما يسمونه (نظرية المعرفة) ويستشهد بابن خلدون.. ومراتب الفكر الإنسانى عنده، ويلاحظ أن العرب حولوا سير التفكير العلمى من الاتجاه التأملى الذى وضعه اليونان إلى اتجاه آخر أكثر التصاقا بالصنائع، أى بالأساليب العلمية للتأثير فى المادة.. وهو يرى أن الحضارة العربية الجديدة لم تولد بعد، لكنها فى المخاض.. وربما استطاع الإنسان العربى أن يستعيد ماضيه، وربما استطاع أن يتابع فى عالم اليوم ذلك الدور الذى نهض له فى العالم القديم.. ويعنى د. شكرى محمد عياد بذلك تحطيم السدود بين الحضارات والشعوب، وإقامة مجتمع من بنى الإنسان فى هداية الله.. لهذا نرى أن كتابه عن الحضارة العربية رسالة إلى حاضرنا وإلى مستقبلنا..



الإسلام وأثره فى الثقافة العالمية

الإسلام تشريع عام، والتشريع الإسلامى جمع كلمة العرب، وأخرجهم من أمة أمية مفككة منحلة إلى أمة تنشد العلم وتنشره.. لذلك يقول د. محمد سلام مدكور فى كتابه «الإسلام وأثره فى الثقافة العالمية»: إن هذا الدين يحث على البحث والنظر والاجتهاد للتعرف على ما يمكن للعقل إدراكه مما فى الكون من أسرار والأخذ بما يفيد البشرية من علوم ومعارف..

يستهل د. محمد سلام مدكور كتابه بالحديث عن الإسلام وخصائصه.. الإسلام خاتم الشرائع السماوية وأعمقها، وهو فوق كونه دينا يتعبد به فقد جاء وافيا بحاجة الناس أفرادا وجماعات عادلا سهلا من غير إفراط ولا تفريط، ولم يفصل الإسلام بين الدين والدنيا، وجمع بين الروحانيات والماديات، ومزج العقيدة بالحياة، واعتبر كل عمل من أعمال الخير عبادة، وامتاز التشريع الإسلامى بعمومه وشموله.. إنه يخاطب العقل، وينزع نزعة جماعية لصالح الفرد والمجتمع.

ولما كان العلم دعامة تزيد العقل نورا دعا إليه الإسلام، وحث الناس على التزود منه، حتى صار طلب العلم عبادة، وبلغ من شدة تقدير الإسلام للعلم أن جعل مصادر التشريع فى الغالب مجملة، ووضع دلائل ليتعرف بها العلماء على حكم الشرع، والكتاب سيد أدوات العلم والمعرفة؛ لذلك كان هارون الرشيد إذا ما انتصرت جيوشه فى معركة يقصر طلبه عن تعويض خسائر الحرب على تسليمه نفائس الكتب والمخطوطات التى لم تترجم إلى العربية.. وفعل ذلك ابنه المأمون من بعده. الكتب ـ فى رأى المأمون ـ هى الأسلحة العقلية التى يتسلح بها فى سبيل السلام وتدعيمه.. وذلك يدل على أن الدولة الإسلامية تريد استخدام العلم لإسعاد البشرية وإقرار السلام ومقاومة الحروب.. وعندما أسر المسلمون عددا من الصينيين تعلموا عنهم صناعة الورق مقابل إطلاق سراحهم، وتوسع العرب فى صناعة الورق لأهميته فى نشر العلم وتبادل الثقافة، وعنهم أخذها الغرب عن طريق صقلية وإسبانيا، فكان العلم هو العنصر الأول من عناصر الحياة فى نظر الإسلام، وبه حارب الإسلام الجهل فى كل وكر من أوكاره.

أما العنصر الثانى فهو العمل، وخلافة الإنسان لله فى الأرض لا تتحقق إلا بعمارة الأرض بالسعى والكدح، ولقد دعا الإسلام إلى التكافل فى العلم والعمل، هما حق مشترك بين الناس يتعاونون فى التعرف عليه، والتزود به.. ويربى ذلك روح التواضع والتعاون فى نفوس العاملين.. ومن أهم ما عنى به الإسلام رعاية هؤلاء العاملين، وإذا

كانت الحضارات الحديثة عرفت التأمين ضد البطالة والمرض والشيخوخة فإن قواعد الإسلام توحى بذلك.. وقد درج المسلمون الأولون على اعتبار بيت المال موردا يتسع لرعاية من أدركه الضعف والشيخوخة أو مات عائله دون نظر إلى دين أو ملة.. أما التكافل فى العلم فقد قاد إلى شيوع حركة الدرس فى المساجد وتعليم الأطفال بالمجان وإعطائهم المنح والمرتبات، وعندما بسط الإسلام جناحيه على الكون غزا المسلمون بفضائلهم نقائص أعدائهم، وكان أثر مكارم أخلاقهم أمضى وأقوى أثرا من الحديد والنار، وسادهم طابع التسامح، فلم يكونوا سادة ولا فرضوا الإسلام، فهو لا يقوم إلى على الرضا والاختيار، وظهر العرب على مسرح التاريخ، منارة للعلم والعرفان والحضارة.. وامتزجوا بأهل البلاد المفتوحة.. وتكونت لهم ثقافات أفادت العالم أجمع وتهافت الناس للتعرف عليها والإفادة منها، وأصبح المثل الأعلى للأوربى أن يتشبه بالعرب المسلمين فى التفكير والمعيشة.

ويحدثنا د. محمد سلام مدكور بعد ذلك عن عناية علماء المسلمين بنشر الثقافة العالمية عن طريق الترجمة.. وقد أغدقوا على المشتغلين بها من الأموال ما جعلهم يؤدون الترجمة بعناية ودقة وحماسة.. وكانت أداة الترجمة موجودة، ونعنى بذلك كثرة المسلمين الذين يعرفون لغات هذه البلاد، وكان للإسلام ثقافته الخاصة به ونظرياته العلمية التى أشار إليها القرآن الكريم وجاء بها أو وَجَّهَ النظر إليها.. وقد انصهرت الثقافات المختلفة فى بوتقة الإسلام.. وعندما

يتطرق الحديث لدور العرب فى مجال العلم يذكر الكتاب الكثير.. وينقل عن الفيلسوف الفرنسى رينيه جيند ـ الذى أسلم وسمى نفسه عبد الواحد يحيى ـ بعضا من فضل العرب فى الاختراعات، ويذكرنا بالساعة التى أهداها هارون الرشيد لشرلمان، ويشير إلى البوصلة، واستخدام الحمام الزاجل فى نقل الرسائل، ونظم الرى، وعشرات من الخضراوات والفاكهة. حتى الاستحمام تعلموه عن العرب، والطرطوشى حكى عنهم أنهم لا يغتسلون إلا مرة أو مرتين فى العام فأدخل العرب الحمام الأوربى.

ويحدثنا عن الاختراعات الكيميائية مثل المادة المفرقعة الدافعة للصواريخ التى استخدموها فى حروبهم ضد الصليبيين. والتاريخ يروى لنا أن المدفعية العربية أصلت الأوربيين نيرانا حامية جعلتهم يطلقون على تلك المدافع «فوهة الشيطان»، وكان ذلك نقطة تحول فى نقل فنون الحرب وبالذات فى مجالى: الذخيرة والعتاد..

ويأتى الكلام بعد ذلك عن التشريع الإسلامى، وقد شهد للفقه الإسلامى وأصالته وقوته وصلاحيته فطاحل علماء أوربا من غير المسلمين.. ومنهم لامبير الذى استصدر من المؤتمر الدولى للقانون المقارن فى لاهاى سنة ١٩٣٢ القرار التالى: «اعتبار الشريعة الإسلامية مصدراً من مصادر التشريع العام واعتبار الشريعة الإسلامية حية صالحة للتطور» واعتبار الشريعة الإسلامية قائمة بذاتها وليست مأخوذة من غيرها».. وقد ألبس الدين الإسلامى كل شىء من أمور المسلمين ثوب

التشريع الذى نمته الأجيال المتعاقبة؛ ليصبح منظما للعلاقات الإنسانية تنظيما دقيقا، وكفلت تعاليمه إسعاد البشرية وكفالة العيش لكل فرد فى المجتمع، وقبل أن يختم الكتاب يتحدث د. محمد سلام مدكور عن العدالة الاجتماعية والعمل فى الإسلام.. يؤكد أنه لن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها، ولا فلاح ولا رجاء إلا بالاستمساك بكتاب الله.



الإسلام والعصر والمستقبل

كتب الأستاذ الدكتور عبد العزيز كامل عن الحضارة الإسلامية كثيرا فى كتبه القيمة.. وكتاباه «الإسلام والعصر» و «الإسلام والمستقبل» حافلان بما يمتع القارئ: عقلا وفكرا ووجدانا. إنه يبهجنا بالزوايا التى يتناول بها موضوعاته، وبالمادة الخصبة التى يقدمها، وبالأسلوب الفريد الذى يعرض به دراساته.. تعالوا معنا إلى ما عالجه من قضايا هذه الحضارة:

فى كتاب الإسلام والعصر للدكتور عبد العزيز كامل دراسة حول الإسلام والعلم.. يقول فيه إن الإسلام ينظر للوجود كله نظرة تكاملية، وإن الدعوة للعلم والبحث العلمى أصيلة فى الفكر الإسلامى، وإن القرآن الكريم يحثنا على التأمل فى الكون والنفس والتاريخ الإنسانى، ويذكر لنا من ظاهرات الكون والمجتمع ما نستطيع أن نستهدف بها محاولة كشف القوانين العلمية التى يسير بها الكون ويتطور بها المجتمع.. والأمثلة التى يضربها لهذه الظاهرات يأتى بها من القرآن

الكريم؛ لذلك يضفر الإيمان بالعلم ليجعل منهما شيئا واحدا، فريدا في بابه.. والفكر الإسلامى يقول إن الملاحظة والتجربة أساس العلم وأصله. لا التفكير النظرى المجرد، ويشير إلى أن الغربيين يشهدون لابن الهيثم بأنه أول من شرح تركيب العين وبين أجزاءها بالرسوم وسماها بأسماء تطلق عليها حتى الآن كالشبكية والقرنية والسائل الزجاجى والسائل المائى.. وهذه الإضافات ليست محل جدل، لكن قوانين البشرية وقوانين المجتمع، تحتاج إلى وقفة لتصنيفها بين العلوم، وكان الفكر الإسلامى له محاولات رائدة فى هذا المجال أبرزها محاولة ابن خلدون فى مقدمته كشف قوانين تطور المجتمع.

وحين يحدثنا د. عبد العزيز كامل عن (المسجد.. فن مؤمن)، يقول إن المسجد من حيث وظيفته (جامع) كانت فيه وإلى جواره المدارس ومساكن طلاب العلم والأساتذة والمستشفيات والرعاية الاجتماعية وسبيل المياه ومكاتب تحفيظ القرآن، والمسجد جهد اشترك فيه عدد من الفنانين الذين يعملون بمواد متعددة: الحجر. الرخام. الحديد. النحاس. الخشب. الحصى. ويستخدمون عدة ألوان، وعدة أدوات؛ ليكون المسجد بعد ذلك وحدة فنية متكاملة تعبر بصور متعددة عن العقيدة الواحدة، فالمئذنة نابعة من بناء المسجد نبعا عضويا كأنها ذراع ممتدة داعية أو شجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء.. وهى تبدأ بقاعدة مربعة ـ تربيع المسجد نفسه ـ وتتحول فى تدرج إلى مثمن فإلى دائرة، ثم أعمدة رشيقة يخالط فيها البناء الفضاء، ثم كرة،

فهلال.. إنه يسحب نظرك من الأرض إلى السماء. من المادة إلى الروح. من كثافة الأرض إلى رقة السماء وشفافيتها.. هل المئذنة صورة رمزية لليد الداعية؟ هل ارتباطها بالمسجد هو ارتباط اليد بالجسم؟ هل تقسيمها هو المفاصل التى تربط اليد بأصابعها بالجسم. وهكذا تحكم المسجد قوانين هندسية: دقة فى القانون، جمال فى الأداء، تماسك بين الأجزاء.. كثيرة هى الدروس التى تسمعها من المسجد فى صمته وتقرؤها على حوائطه وفى محرابه وأرضه...

ويستوقفنا فى كتاب د. عبد العزيز كامل «الإسلام والمستقبل» مقال عن الرسول ﷺ والعلم، وقبله يناشد المسلمين العمل على الوصول إلى مستوى علمى ملائم للعصر فى كل علوم الحياة: الذرة والفضاء والبحار... لماذا؟؟ إن ذلك وحده ـ فى رأيه ـ هو الذى يجعلنا نتحول إلى صانعى حضارة، لا مجرد مستهلكين لحضارة؛ إذ أن من موازين المقارنة بين شعب وشعب مدى المساهمة الإيجابية فى صناعة الحضارة: إضافة وعطاء.. لصرح الحياة العلمية المعاصرة.

وفى مقاله عن الرسول والعلم يقول: إن أكبر تكريم للعلم أن يكون الأمر الأول الذى أنزله الله على رسوله: اقرأ... وإذا رجعنا إلى سورة القلم وجدنا فى صدرها أن ربنا يقسم بالقلم وما يسطرون.. أمر إلهى بالقراءة، وقسم إلهى بالقلم.. ويبدو من ذلك ضرورة ربط العلم فى الإسلام بهدفه الأخلاقى.. أن يكون باسم الله، وأن يكون فى خدمة الإنسان.. والظاهرة الكبرى فى حياة الرسول ﷺ أن المجتمع الإسلامى

ـ بكل مقوماته كان يتكون والوحى ينزل.. وهذا من عبقرية هذا الدين، وشجع الرسول ﷺ الصحابة على طلب العلم ومعرفة اللغات الأجنبية، فكان زيد بن ثابت يعرف السريانية والفارسية والحبشية والقبطية والرومية. وعندما احتاج المجتمع إلى من يجيد العبرية ليكون ترجمان الرسول بها تعلمها زيد، وقام بهذه المهمة.. وحدد الرسول مكانة العلم فى مجتمع المدينة حين جعل لكل أسير فى بدر أن يعلم عشرة من المسلمين القراءة والكتابة ليطلق سراحه.. كما استعان الرسول بخبرات الصحابة والبعوث العلمية لتعلم فنون من الحرب استلزمها حصار المدن كصناعة المنجنيق.. وما بعد الرسول لم يقتصر جهد الحركة العلمية الإسلامية على مجرد التحصيل والتوثيق، وإنما امتدت إلى البحث عن قوانين الحياة فى مجالاتها الطبيعية والبشرية.

وعندما يتحدث د. عبد العزيز كامل عن الإسلام ودوره فى بناء الإنسان المعاصر يعرض لست قضايا أو ركائز أساسية: الإيمان. الإخاء الإنسانى. المنهجية العلمية. القانون الأخلاقى. حجم السكان. التنمية الشاملة. وحين نتوقف عند المنهجية العلمية نجده يعرض لمراتب البحث العلمى: التجارب والمشاهدات. المقارنات والمقابلات. الفروض الخصبة. وأخيرا مرتبة الإلهام، وفيها سنجد لقاء قويا بين العلم والدين.. وهو يعرض لتفاصيل هذه المراتب؛ ويأخذ بيدنا إلى المنهج الإسلامى العلمى، دون أن يغفل عما يجرى على الساحة العالمية؛ إذ ينقل إلينا بعض عبارات أينشتين حول هذا الكون.. يقول: «إن الذى لا تجيش

نفسه لهذا الكون وروعته ولا تتحرك عاطفته ـ حى كميت. إنه خفاء لا نستطيع أن نشق حجبه، ومع هذا نحن ندرك أن وراءه شيئا هو الحكمة أحكم ما تكون، ونحس وراءه شيئا هو الجمال أجمل ما يكون.» إن الشعور الدينى الذى يستشعره الباحث فى الكون هو أقوى حافز على البحث العلمي، وأنبل حافز.

تحية للعالم والأديب والفنان والإنسان المسلم الدكتور عبد العزيز كامل.. أثابه الله على ما يقدم بقدر ما ينتفع المسلمون من هذا العلم الغزير..

* * *

أثر العرب والإسلام فى النهضة الأوربية

هذا الكتاب يمثل إضافة جديدة إلى البحوث العلمية التى قام ـ ويقوم بها ـ علماء الغرب والشرق فى التعريف بالحضارة العربية الإسلامية ومعجزاتها ومكانها في تطور الحضارة الإنسانية العامة، وما كان لها من صلات بحضارة الغرب الحديث وتأثير فيها، ويلقى مزيدا من الضوء على حركة التاريخ الحضارى،* والأخذ والعطاء بين الحضارات لدعم التفاهم والإخاء والسلام..

الكتاب عنوانه: أثر العرب والإسلام فى النهضة الأوربية.. وقد أصدرته الشعبة القومية لليونسكو بإشراف مركز تبادل القيم الثقافية، ونشرته هيئة الكتاب فى مجلد ضخم تصل صفحاته إلى أربعمائة وثلاثين صفحة من القطع الكبير، وشاركت فيه أسماء عزيزة غالية كانت لها إسهاماتها الكبيرة فى حياتنا الثقافية.. وعلى رأسهم د. محمد خلف الله أحمد الذى رأس تحرير الكتاب، وقدم له فى عرض لا نظننا

سنتجاوزه كثيرا، وهو يشرح الهدف من الكتاب وفكرته ويشير إلى أن موضوعه واسع ومتشعب، شاركت فيه جهود كبيرة، لأفراد وجماعات: هناك من بحث في المؤتمرات الإسلامية فى الكوميديا الإلهية لدانتى، ومن درس أثر الموشحة الأندلسية فى الشعر الغنائى الأوربى، أو تأثير ابن سينا فى الفلسفة الغربية.. وانقضت ـ أو كادت ـ تلك المرحلة التى اتسمت بالتحامل، والتعصب وحلت محلها مرحلة تتسم إلى حد كبير بالموضوعية وإبراز الوحدة الإنسانية، ويعترف «كوتر يونج» (بالدين الثقافى العظيم الذى يدينون به للإسلام، بتعليمهم أن يحملوا هداياهم الثقافية إليه، فى شعور بالمساواة لتأدية الدين القديم).

.. والكتاب الذى بين أيدينا اختيرت له تسعة ميادين تأثر فيها الفكر الأوربى بالمنجزات الفكرية الإسلامية..

الميدان الأول: الأدب وقد أعدت الدراسة فيه د. سهير القلماوى و د. محمود على مكى، وعرضت الدراسة إلى القصص العربية التى وصلت أوربا مثل ألف ليلة، وكليلة ودمنة، كما وقفت عند دانتى وبوكاتشيد واحتمال تأثر كليهما بالأدب العربى.. واهتمت بتأثير مسرح خيال الظل على الأدب المسرحى فى أوربا.. والدراسة تؤكد الصلات العربية الغربية أدبيا.

وكان الميدان الثانى الذى عالجه كتاب «أثر العرب والإسلام فى النهضة الأوربية» هو الفلسفة وكتب الدراسة الخاصة بها د. إبراهيم

بيومى مدكور، مركزا على ثلاث نقاط: خصائص الفلسفة الإسلامية، انتقال جوانب منها إلى الفكر الغربى، وأخيرا أثرها فيه.. إن الفلسفة الإسلامية لها طابعها الدينى وتعتد بالعقل البشرى، وقد أثارت فى أوربا حركة للتوفيق بين الفلسفة والدين، وكان لذلك صداه فى الفلسفة المسيحية فى القرن الثالث عشر وما بعده.. وقد تحدث هذا الفصل عن فلاسفة الإسلام الكبار من أمثال الكندى والفارابى وابن سينا والغزالى، كما وضع نماذج من القضايا الفلسفية الكبيرة كما أثارها المسلمون.. وكتب د. عبد الحليم منتصر الفصل الخاص بالعلوم والرياضيات، وفيه تبرز أسماء الخوارزمي والخازن، وابن الهيثم الذين كانت كتبهم مراجع معتمدة فى أوربا.. والمعروف أن كتاب (القانون) لابن سينا قد ترجم إلى اللغات الأوربية، وطبع عدة مرات، وأن كتب جابر بن حيان فى الكيمياء، وكتب الرازى أيضا تعتبر من الكتب المؤسسة لعلم الكيمياء الحديث.. ويلفت د. محمد كامل حسين النظر إلى أكذوبة أن الحضارة العربية كانت جرداء إلى أن جاءها العلم اليونانى.. وأشار إلى أن تأثير الحروب الصليبية مثلا فى الطب الغربى كان ضئيلا، بعكس ما حدث مع الأندلس التى قامت فيها حركة قوية لترجمة الكتب الطبية للرازى والمجوسى وابن سينا والمشتغلين بالعقاقير من أمثال ابن البيطار وداود الأنطاكى.. وقد حاول البحث أن يجيب عن سؤال هام: ماذا أضاف العرب للطب اليونانى؟.. وهنا أشار إلى ما فعل ابن النفيس بالنسبة للدورة الدموية الصغرى.. نعم، كانت هناك إضافات وإضافات كبيرة.

وكان الميدان الخامس هو الجغرافيا، وكتبه د. محمد محمود الصياد عارضا لاهتمام العرب فى الجاهلية بالمعارف الجغرافية والفلكية بحكم ظروف بيئتهم، وفى إسلامهم بحكم اتساع رقعة الدولة ومعرفة الطرق والمسافات وبحكم اعتماد بعض العبادات على أحوال جغرافية وفلكية كالصوم ومواقيت الصلاة والاتجاه للقبلة.. واهتم د. الصياد بالإدريسى الذى عمل فى بلاط ملك صقلية، كما اهتم بابن ماجد التى تعد كتبه فى علوم البحار رائدة، ونوه بمعرفة العرب بالنجوم، كما ذكر نماذج من الأجهزة العلمية الدقيقة التى اخترعها العرب كالبوصلة والمزولة.

أما الفصل السادس فدار حول المعارف البحرية والملاحية، وتصدى له د. حسين فوزى، وأشار فيه إلى أن أوربا نقلت عن العرب بعض فنون قيادة السفن، ومن الثابت أن فاسكوداجاما استعان بالمعارف الملاحية العربية وبملاح عربى مسلم.. كما ظل اسم ابن ماجد يتردد على شواطئ بحر الهند كما ترك وثائق هامة فى مجال الملاحة.. واشترك الدكتور جمال الدين الشيال، والدكتور أحمد مختار العبادى فى كتابة الدراسة الخاصة بـ (التاريخ) والمؤرخين العرب، ومن الواضح أن كتبهم كانت مراجع للإسبان فى كثير مما كتبوه، كما استمد منها الإفرنج الذين أرخوا للحروب الصليبية.. وأكد البحث على استفادة الباحثين الغربيين فيها بعد عصر النهضة بدراسة الإسلام ونبيه وقرآنه وتاريخه، وقد أثمر ذلك لونا من ألوان تأثير الحضارة العربية الإسلامية على أوربا.

أما الفصل الخاص بالعمارة والتحف الفنية ـ وهو الفصل السابع ـ فقد أعده الدكتور أحمد فكرى، وعرض فيه إلى إنشاء ونشاط حركة البناء والعمارة، وما طرأ على فن البناء والزخرفة من إضافة أساليب جديدة أو تعديل أخرى قديمة، ومن استخدام للأشكال الهندسية والزخارف من الكتابة العربية.. ومن الواضح أن للعرب تأثيرا كبيرا على أوربا فى مجالى العمارة والتحف الفنية.. لكن الأثر ضئيل فى مجال فن التصوير...

والبحث التاسع والأخير للدكتور محمود أحمد الحفنى، وهو عن التأثير الموسيقى العربى على الموسيقا الأوربية، وقد تعرض البحث لمدرسة زرياب الأندلسية فى القرن الثالث الهجرى ـ التاسع الميلادى ـ وقرر معتمدا على الشواهد الكثيرة أن أوربا تدين للعرب بالكثير من آلاتها الموسيقية، وأظهر مثل على ذلك: العود وقد احتفظت أربع عشرة لغة أوربية بالاسم العربى، والمحاولات التى تبذل لكشف وإحياء التراث العربى الموسيقى سوف تكشف عن تأثيرات بالغة له فى الموسيقا الأوربية..

... والأسماء التى ذكرناها تؤكد أن البحوث قد كتبت منذ وقت بعيد.. بل إن المقدمة تشير إلى أن الفكرة قد بدأ يتبناها اليونسكو فى قراراته عام ١٩٦٢ ، أى منذ ربع قرن؛ لكى توضع هذه البحوث ثم تترجم إلى اللغات العالمية.. وهو أمر له أهميته الخاصة.. وإن كان كتاب سيجريد هونكه الألمانية الذى صدر خلال هذه الفترة قد أضاف

الجديد، والكثير في هذا الباب.. ونعنى به حضارة العرب والإسلام وكيف أثرت فى حضارة أوربا الحديثة.. بل يتجاوز البعض فيرى أن «التأثير» كلمة غير كافية، ويفضلون عليها: كيف شاركت في صنع عصر النهضة وما تلاه.. وأيا كان الأمر، ففى اعتقادنا أننا أمام مجلد رائع، جدير بالاحترام والقراءة؛ لأنه يزرع فى نفوسنا مزيدا من الثقة، ويمد بجذورنا عميقة في تاريخنا، ويؤكد أصالتنا التاريخية فى كل فرع من فروع العلم والمعرفة.. وتحية للشعبة القومية لليونسكو على هذا الجهد العلمى الكبير، ونتوقع المزيد..



أصل الإنسان

تساءل موريس بوكاى «ما أصل الإنسان؟» وحاول أن يجيب من خلال العلم والكتب المقدسة، وقد أحسن مكتب التربية العربى لدول الخليج حين ترجم هذا الكتاب الرائع، وقام بنشره على نطاق واسع والكتاب ـ كما يقول د. محمد الأحمد الرشيد مدير المكتب فى مقدمته ـ كتاب يجمع بين الأدب والعلم والدين، بذل فيه المؤلف جهدا مشكورا حتى يقدم فيه العلم الصحيح بأسلوب أدبى مناسب فى إطار الفكر الدينى السليم.

.. وفى المقدمة يرى المؤلف أن داروين حقق نجاحا على مستوى شعبى بكتابه (أصل الأنواع) وقد ساقت نظريته افتراضات، جعلت الناس يفترضون ويزعمون أن الانسان سليل القرود، وهذا أبعد مما ذهبت إليه النظرية ذاتها، وكان هذا الإعلان صدمة أصابت المؤمنين الذين يعتقدون أن الإنسان من خلق الله.. سبحانه وتعالى. وموضع الإنسان والتطور على درجة كبيرة من النقيض؛ إذ يشمل العديد من فروع المعرفة لا تتيسر لفرد.

ويبدأ بوكاى فى الفصل الأول بالحديث عن التطور فى مملكة الحيوان ما بين المعطيات الثابتة والفجوات الكائنة فى معارفنا، وهو يناقش العبارة التى تقول «أصل الحياة لم يعد موضوعا من الموضوعات التى تتطلب البحث فى المختبرات». ثم هو ـ على حد قول د. الرشيد ـ لا يترك داروين والدارونيين يعيشون فى زهو الانتصار الفرضى الخاطئ، ولا يترك «لامارك» يهنأ بدعم مطلق فى نظرياته عن التحول، ولكنه يقف بينهما قاضيا، فيضع نظرياتهما فى قفص الاتهام، ويفشل محامى كل منهما فى الدفاع عن صاحبه، فيتركه سجين نظريات خاطئة وأوهام قاتلة..

والفصل الثانى من كتاب موريس بوكاى عن أصل الإنسان يعرض لتطور الإنسان مقارنا بتطور كائنات حية أخرى، موضحا أوجه الش والاختلاف.. ثم يحاول أن يؤرخ للموجات المتتالية للأشكال البشر من الإنسان البدائى إلى الإنسان بشكله الحالى، ويعرض للتطور فى مختلف الجماعات البشرية، ويتحدث عن السلوك الفطرى والمكتسب مقارنا بين الإنسان والحيوان، كما لا يفوته أ... عن أثر التع... الخلاق فى نمو الإنسان.

.. أما الفصل الثالث فيدور حول أصل الإنسان فى الكتب المقد... التوراة والإنجيل، متحدثا فى صراحة عن أصول النصوص وتاريخ... باحثا عن مدخل حديث لفهم الأسفار، موضحا موضوع خلق الإن...

طبقا للتوراة والإنجيل فى القصص وفى السياق.. وهو هنا «عالم» بقدر ما هو دارس للنصوص الدينية.

وهو فى الفصل الرابع يصل لقمة وذروة عالية حين يتحدث عن أصل الإنسان والتحولات التى طرأت عليه وفقا للقرآن الكريم.. وهو يفند ما جاء فى الأسفار عن خلق الإنسان، ويرى كمال الصواب فى النصوص القرآنية، ويؤكد اتفاق العلم معها، وذلك بعقله الراجح وعلمه الواضح.. ويكفى أنه تعلم العربية ليعلم من خلالها أسرار الكتب السماوية، ويفهم دون وسيط معانى آيات القرآن الكريم التى أشارت إلى خلق الإنسان وخلق النشأة.. وله كتاب آخر ــ لم يترجم بعد للعربية ــ عنوانه: الإنجيل والقرآن والعلم..

والفصل الخامس والأخير من الكتاب يتحدث فيه بوكاى باستفاضة عن التوافق بين الدين والعلم... والكتاب على هذه الصورة يقوض الافتراضات الظالمة التى تقدم باسم «العلم».

ونحن مع كتاب «ما أصل الإنسان؟» لموريس بوكاى أمام موسوعة علمية ضخمة فى نحو مائتين وأربعين صفحة من القطع الكبير والحرف الصغير، وهو يحتاج فى قراءته ودراسته إلى أيام وأيام.. إنه ليس كتابا عاديا، بل هو واحد من الكتب يحفر لنفسه فى تاريخ الإنسانية مجرى عميقا، وله تأثيره الكبير فى المجالين معا: الدين والعلم.. والرجل يكتب بعقلانية، ويتصدى للأفكار الخاطئة فى شجاعة منقطعة النظير، ولا يمكن أن نكتفى بشذرات من الكتاب من هنا وهناك للتدليل

على صواب منهجه ودقته فى البحث، إذ لابد من مطالعة متأنية لكل كلمة، وجملة، وعبارة.. فضلا عن كل صفحة، وفصل، وباب؛ وصولا إلى النتيجة التى تطمئن الإنسان المؤمن على أصله: خليفة لله على الأرض، ومخلوقا كرمه سبحانه وتعالى بما حباه وأعطاه، وفى مقدمة ذلك: العقل..

إن الكتاب منعطف طريق بين الدراسات التى أجراها الغرب فى هذا المجال؛ لأنه يصوب اقتناعاتهم المضللة، ويضع أقدامهم على السبيل الصحيح لفهم الحياة، وأصلها.. وهو يزيد من إيمان المؤمنين، ويعمق من فهم النصوص الدينية، ويشرحها فى دقة ووضوح، الأمر الذى يعلى من قدر الكتاب، ويجعل منه وثيقة إنسانية تاريخية، تنفى عن البشر الأصل المختلق، وتؤكد على أنهم من نسل آدم عليه السلام..

إن كتاب (ما أصل الإنسان؟) لموريس بوكاى يدعونا خلال قراءته المتأنية إلى تفكير طويل؛ إذ هو ليس كتابا يسيرا سهلا، بل هو عميق معقد، يحتاج إلى خلفية علمية ـ خاصة فى علم البيولوجى ـ كما يحتاج إلى خلفية دينية وقراءة للنصوص التى وردت عن أصل الإنسان فى القرآن الكريم وفى الإنجيل والتوراة.. ولا ندرى كيف السبيل لذيوع أفكار هذا الكتاب ونشرها على أوسع نطاق، لكى تصل إلى الناس فى كل مكان.. أهو تبسيط الكتاب؟ أهو جعله فى حلقات إذاعية وتليفزيونية؟ أهو تقريره فى كليات العلوم والكليات المتخصصة فى العلوم الدينية؟.

إن مكتب التربية العربى لدول الخليج قدم بهذا الكتاب خدمة جليلة للذين يريدون أن يعرفوا أصل الإنسان، وهو أمر بدون شك يقرر «مستقبل الإنسان» وإننا إذ نحيى الذين قاموا بالترجمة، إذ الكتاب غاية فى الصعوبة بلغته الأصلية، وهناك كلمات عدة ليس من السهل العثور على مقابل لها، لكننا ـ قد راجعنا النص العربى على النص الأصلى ـ نشهد ببراعة من نقلوا هذه التحفة الأدبية، العلمية، الدينية إلينا.. وليت طبعات جديدة بأثمان معقولة تصل إلى أيدى قراء العربية فى كل مكان من أرجاء الوطن العربى الكبير.



الأساطيل العربية الإسلامية

هزم الأسطول العربى الفتى بحرية الروم، وانتزع سيادة البحر الأبيض، وتعددت فيه أساطيل العرب إبان ازدهار حضارتهم، وقد خلفوا فى هذا المجال تراثا كان أصلب وأشد من أن تقتلعه محاولات المستعمرين الأوربيين.. بهذه الكلمات يستهل د. إبراهيم أحمد العدوى كتابه عن الأساطيل العربية.

البحار مجال للحضارة.. ومنذ قديم الزمان تلازمت الحضارة مع التقدم البحرى.. وكانت لنا أساطيلنا التى سجلت تفوقا كبيرا، أشادت به أوربا والعالم.. لذلك يقول أمير الشعراء أحمد شوقى:

يا معشر الإسلام فى أسطولكم عِزٌّ لكم ووقايةٌ وسلامُ

جودوا عليه بمالكم واقضوا له ماتوجب الأعلاق والأرحامُ

لو تقرئون صغاركم تاريخه عرف البنون المجد كيف يُرَامُ

بهذه الأبيات، بعد المقدمة، يبدأ د. إبراهيم أحمد العدوى كتابه القيم عن الأساطيل العربية، ويكشف لنا صفحة مجيدة من تاريخ حضارتنا الإسلامية، ويحكى كيف بدأت نواة هذا الأسطول، لقد كانت البداية خطوط دفاع ضد غزوات الأساطيل الرومانية على سواحلنا، وبعد هزيمة الروم فى الإسكندرية على يد عمرو بن العاص بدأت الدعوة لنبذ السياسة البحرية الدفاعية ببناء أسطول عربى، وكان عبدان بن أبى سرح، يد معاوية، فى بناء السياسة البحرية؛ إذ كانا ــ معا ــ من المتحمسين لبناء السفن، وإمدادها بالمقاتلين من العرب، وتعاونت مصر والشام بحريا من أجل ظهور هذا الأسطول وظهر عملاقا أذهل الروم؛ إذ استطاع هذا الأسطول الفتى أن يلقنهم دروسا لم ينسوها.. إذ سرعان ما أبحر هذا الأسطول إلى قبرص لفتحها مدونا أول سطر فى سجل انتصاراته الخالدة واكتسب العرب تجارب بحرية واسعة نتيجة لذلك، وتطلعوا إلى جزر أخرى قريبة من شواطئهم فانطلقوا إلى جزر الروم فى شرق البحر الأبيض المتوسط، ومن بينها صقلية.. وفى معاركها بطشوا بالروم، ووصل العرب إلى كريت أو إقريطش ــ كما سموها ــ وكان قائد الأسطول هو جنادة بن أمية الأزدى الذى سبق له أن فتح رودس، وساعدهم ذلك على الانتصار فى أكبر موقعة بحرية عرفتها العصور الوسطى، ونحن نعنى بها ذات الصوارى التى حدثت عام ٦٥٥ ميلادية، الموافق لسنة ٣٤ هجرية.. وهى تقف على قدم المساواة مع معركة أكتيوم فى التاريخ القديم، ومعركة أبى قير البحرية فى التاريخ الحديث.. وبانتصار العرب فى ذات الصوارى سادوا البحر

الأبيض، وكان هذا الأسطول صاحب الفضل فى نشر ثمار حضارتهم فى شتى أرجاء البحر المتوسط وفى إعلاء كلمتهم، وكلمة أمة العرب الناشئة فى تلك الأيام.. وتجلت آية المجد العربى الذى حمله ذلك الأسطول فى الحملات البحرية التى شنها العرب على القسطنطينية نفسها عاصمة الروم.. وكان ذلك فى أيام الأمويين، وهو بداية مرحلة تحمل طابع التوسع البحرى.

ويقول د. إبراهيم أحمد العدوى فى كتابه عن الأساطيل العربية: إن حملاتها على القسطنطينية تعتبر حجر الزاوية فى بناء سياسة بحرية جديدة لم يعرفها التاريخ على نطاق واسع إلا فى الحرب الأخيرة. وقوام هذه السياسة خلق تعاون قوى وتنسيق كامل بين القوات البرية والبحرية، وقد ظل العرب لسبع سنوات يهاجمون القسطنطينية بحريا، لمكانتها الاستراتيجية بسبب إحاطة المياه بها من ثلاث جهات، ثم ينتقل الكتاب للحديث عن الأسطول العربى فى غرب البحر الأبيض، فيحدثنا عن طلائع البحرية المغربية التى قامت للمساعدة فى إتمام مشاريعهم وتأمين فتوحاتهم.. وأسس عقبة بن نافع أول قاعدة بحرية بإنشاء القيروان، وفى عهد أسرة الأغالبة ظهر نشاط بحرى كبير، فاتجه أسطولهم إلى صقلية خارجه من تونس، وعاونتهم على ذلك سفن الأندلس.. وامتد نشاط أسطولهم إلى إيطاليا حتى وصلوا نابلى وروما واقتحموا الأخيرة أكثر من مرة، ونحن نعرف جانبا من نشاط أسطول المسلمين فى غرب البحر إبَّـانَ فتح إسبانيا، ونذكر كثيرا حكاية طارق ابن زياد وإحراقه لسفن أسطوله، وعبارته الشهيرة «العدو أمامكم والبحر

وراءكم» وقد نشط هذا الأسطول، وسجل أول انتصار له على الإمبراطور شارلمان بمهاجمة سفن جنوة التابعة له، وأسر عدد كبير من رجالها، مما اضطر الإمبراطور إلى دفع فدية كبيرة لإطلاق سراحهم. ووصل الأسطول العربى إلى أوج مجده باحتلال كريت، وتدعيم القوات البحرية فى كل من مصر والشام.. ويعرض الكتاب لتاريخ أسطولنا فى عهد الطولونيين والفاطميين قبل أن يحكى عن قواعد الأسطول ودور الصناعة، ويحكى الفصل السابع عن أمراء البحر من المسلمين والعرب.. كم أثروا فى أوربا وأساطيلها حتى إنها أخذت لنفسها لقب أمير البحر أو أدميرال لتضفيه على رجال بحريتها؛ تخليدا للكلمة العربية.

ونستمتع كثيرا بهذا الكتاب عن الأساطيل العربية للدكتور إبراهيم أحمد العدوى.. وندرك أن بطولات البحرية التى قام بها الدسوقى وجول جمال عام ١٩٥٦ أمام البرلس لم تكن من فراغ، وندرك أيضا أن إغراق إيلات عام ١٩٦٧ وراءه تاريخ بحرى عريض، ولم يكن وليد الساعة.. فإن أبطال البحرية العربية قد ورثوا أبناءها الكثير من تجاربهم وخبراتهم وأمجادهم القديمة؛ لذلك ستظل هذه الأساطيل وتاريخها جزءا لا يتجزأ من تاريخ الحضارة العربية الإسلامية؛ إذ من خلالها وصل الكثير من أدوات هذه الحضارة إلى أوربا..

* * *

التربية فى الإسلام

إذا ما تحدثنا عن الحضارة الإسلامية والعربية، فلابد لنا أن نعرض لقضية التربية ومظاهرها واتجاهاتها عند المسلمين والعرب.. وكثيرة تلك الكتب التى ناقشت هذه القضية، ومن بينها كتاب المرحوم محمد فوزى العنتيل.. فقد استطاع أن يكتب عنها فى تركيز وإيجاز ووضوح.

يقول المرحوم فوزى العنتيل إن كتابه «التربية عند العرب» يهدف إلى أن ينبه الأذهان إلى الآراء الناضجة لعلماء التربية المسلمين، والكثير منها مازال مطويا فى المخطوطات.. ولم تخصص له كتب كاملة.. وقبل أن ينادى (روسو) ومعاصروه بالحرية والإخاء والمساواة بشر بها الإسلام.. وقد تأثرت التربية بما جاء به الإسلام، وقد تجلى طابعها فى نزعتها المثالية فى تقديم العلم والحث عليه، وديمقراطيتها التى قضت على العنصرية، واشتملت التربية الإسلامية على عدة أغراض.. أولها: الدينى، إذ أن القرآن الكريم منذ نزوله اتخذ مرجعا للمسلمين فى أمور العبادة والتشريع والحياة الاجتماعية، وإليه يعود الفضل فى انتشار القراءة.

والكتابة والمدارس، وهدفت التربية أيضا إلى معان اجتماعية، فقد نال العلماء مكانة رفيعة بمقدار ثقافة كل منهم وعلمه.. بجانب أن التربية استهدفت العلم لذاته، وهو وسيلة للنجاح فى الدنيا والآخرة، وكثيرون سعوا إلى وظائف التعليم، كما أن هناك محاولات بذلك من أجل الإفادة من التربية لأسباب سياسية ومذهبية، كما حدث فى بناء الأزهر الشريف، وكانت المدرسة الأولى فى الإسلام هى المسجد.. ثم كان الضحاك بن مزاحم ـ المتوفى عام ٧٣١ م ـ يقوم على مدرسة أولية ـ كُتّاب ـ ولا يتعاطى من التلاميذ أجور تعليمهم.. وفى نفس العام جاء يزيد بن حبيب لمصر، قاضيا ومعلما. وقامت المساجد بوظيفة الخزائن للكتب، التى كانت توضع فى صناديق، وترتب فى فهارس وذلك قبل أن توجد المكتبات التى أصبحت مجتمعات ثقافية يلتقى فيها العلماء للمناقشة.. ثم ظهرت بعد ذلك حوانيت بيع الكتب.

وأسس المأمون بيت الحكمة سنة ٨٣٠ هـ، وكان أول معهد هام للتعليم فى الإسلام، فكان مكانا للترجمة ومجتمعا علميا ومكتبة عامة ومرصداً لتعليم الفلك.. وأنشأ الحاكم بأمر الله أكاديمية أسماها دار الحكمة وألحق بها مكتبة باسم دار العلم وأحصى ابن جبير فى بغداد ثلاثين مدرسة، وفى دمشق أيام صلاح الدين الأيوبى عشرين مدرسة.. وقد أسس المسلمون فى قرطبة سبعا وعشرين مدرسة، وقد أصبحت جامعة قرطبة ذات مكانة عالية بين معاهد التعليم فى العالم أجمع.

وكان للبنات حظ كبير من التعليم منذ صدور الإسلام، وقد تعلمت حفصة بنت عمر الكتابة، وكان للسيدة نفيسة بنت الحسن

ابن زيد مجلس للعلم حضره الإمام الشافعى، وسمع عليها فيه الحديث، كما أن عددا من النساء العربيات احترفن التدريس واهتم الرسول ﷺ كثيرا بالمعلمين، كما حفظ لنا التاريخ أسماء عدد كبير من المعلمين منهم عبد الحميد الكاتب وعطاء بن رباح وابن المقفع والكسائى، وقد وضع ابن سينا صفات يجب أن يتحلى بها المعلم كأن يكون ذا دين بصيرا برياضة الأخلاق. وكان الطفل يذهب للكتاب وعمره سبع سنوات.. وكان القرآن يتخذ كتاب مطالعة وكانت القراءة تسير مع الكتابة جنبا إلى جنب.. وكان التلاميذ يتعلمون مع القراءة والكتابة قصص الأنبياء ومبادئ الحساب وبعض القصائد غير الغزلية..

ويقول محمد فوزى العنتيل فى كتابه عن التربية عند العرب إنهم جروا فى أساليب التدريس على الإلقاء والمحاضرة وعلى الإملاء والتلقين وعلى المناقشة والمذاكرة والمناظرة، كما اهتموا بالعوامل المساعدة على التعلم.. وأظهر أئمة المسلمين فى التربية فهما كبيرا للأسس النفسية للتربية الخلقية.. اهتموا بالقدوة الحسنة والبيئة الصالحة والتشجيع والترغيب والملاينة.. كما اهتموا بالوسائل المانعة كالاتعاظ بالغير والعقاب عند الضرورة.. لقد رأوا فى الضرب المبالغ فيه نوعا من الانتقام والتشفى، نهى عنه الفقهاء، ورفضوا الإيذاء الشديد، ومن يتربى بالقهر عمل على الكذب والخبث والتظاهر بغير ما فى ضميره، وذلك يفسد المعانى الإنسانية فى نفس الطفل كما يقول ابن خلدون، واختلف العلماء فى فهم طبيعة الطفل: رأى بعضهم أن أمارات فلاح

الطفل ونجاحه تظهر فى وقت مبكر.. ورأى آخرون أن نفس الصبى ساذجة وصحيفة بيضاء ينطبع عليها ما يؤثر فيها، ويصعب بعد ذلك جلاؤها وإماطة السواد عنها.

ومن أشهر من علموا فى مجال التربية إخوان الصفا فى القرن الرابع الهجرى ـ ولهم رسائل ضمنوها آراءهم وطابعها دينى، وإن كانت للتربية فى عرفهم أهداف اجتماعية، فالعلم عندهم يكسب صاحبه عشر خصال محمودة.. «أولها الشرف وإن كان دنيا، والعز وإن كان مهينا، والغنى وإن كان فقيرا، والقوة وإن كان ضعيفا، والنبل وإن كان حقيرا، والقرب وإن كان بعيدا، والجود وإن كان بخيلا، والحياء وإن كان صلفا، والمهابة وإن كان وضيعا، والسلامة وإن كان سفيها.

وقسموا العلوم التى يتعاطاها البشر إلى الرياضيات أو علم الآداب، وهى تسعة أنواع منها القراءة والكتابة واللغة والنحو والحساب والشعر والكيمياء.. ثم العلوم الشرعية الدينية.. وأخيرا العلوم الفلسفية التى اهتموا بها وأسموها «الحقيقية».

وحجة الإسلام ـ الغزالى ـ من طليعة العلماء الذين اهتموا بالتربية وتهذيب الروح والتحلى بالفضائل والمحاسن الأدبية، وقد ربط السعادة بالفضيلة، وبذلك تستريح النفس الإنسانية ويستريح المجتمع.. وله رسالة بعنوان أيها الولد، وفى هذه الرسالة يتحدث عن واجبات المتعلم وفوائد العلم، ثم ينتقل للحديث عن التربية وعن صفات المربى.. ويقرر أن التربية هى إخراج الأخلاق السيئة وغرس الأخلاق الحسنة.. وتنتهى

الرسالة بطائفة من النصائح للمتعلمين، ولابن خلدون فصول شائعة فى التربية والتعليم وعلم النفس التربوى، تضمنت اتخاذ الأساليب الحسنة كوسائل لإيضاح الدرس ومراعاة استعداد التلاميذ وقدرتهم على الفهم بالتكرار المساعد على الاستيعاب والتدرج فى التحصيل، ولقد تأثر العالم بدون شك بالتربية الإسلامية التى تستمد فلسفتها من القيم المثالية والأخلاق.. وهى تقود النشء للطريق القويم، حيث يشع من وراء السحب المعتمة ذلك القبس السماوى المنير رمزا لكل ما هو حق.. لكل ما هو عدل. لكل ما هو طاهر نقى.



التصوير الإسلامى ومدارسه

الفن سمة من سمات الحضارة، وكثيرون يتصورون أن الإسلام قد وقف فى طريق الفن، وعلى وجه التحديد: الفن التشكيلى، لكن الدكتور «جمال محمد محرز» فى كتابه «التصوير الإسلامى ومدارسه» يدحض هذه الأفكار، ويكشف لنا عن مدارس رائعة فى التصوير الإسلامى.

كانت الصور والتماثيل من الأسباب التى أدت إلى الشرك بالله قديما، فيذكر لنا الكلبى فى كتابه «الأصنام» أن الغرض من إقامة التماثيل فى الأصل هو تبجيل الراحلين وتعظيم شأنهم بين قومه. وتطور الأمر إلى اتخاذها آلهة تعبد، وكان موقف الإسلام من التصوير له أثره فى طبيعة التصوير الإسلامى، ونلاحظ ذلك فى عدم استخدام التصوير لنشر التعاليم الإسلامية، وخلو المصاحف والمساجد منها، واقتصر التصوير على تزيين المؤلفات الأدبية والعلمية، ولم تصل إلينا الصور والرسوم التى زوق بها كتاب كليلة ودمنة، والتى تأثر فيها

التصوير الإسلامى كثيرا بالتصوير الساسانى والبيزنطى، ولكن مع القرن السادس والسابع الهجريين خضعت المراكز الفنية لأسلوب واحد. ومدارس التصوير الإسلامى ـ كما يقول د. جمال محمد محرز ـ أربع: هى المدرسة العربية، والإيرانية، والهندية المغولية، والتركية العثمانية.

والكتاب يكشف عن صفحة رائعة من تاريخ الفن الإسلامى وأثره عالميا.. المدرسة العربية امتدت من العراق إلى الأندلس.. وأهم مراكزها بغداد والموصل ودمشق والقاهرة وقرطبة وغرناطة، وقد وصل إلينا بعض إنتاجها فى القرن الثانى الهجرى، أى الثامن الميلادى.. ولم تكن فى البداية تخضع لأسلوب واحد ـ وفى عهود متأخرة استطاعت هذه المدرسة أن تتخلص من المؤثرات الأجنبية، وتمكنت من أن تصهرها وتدمجها فى أسلوبها الخاص، ونمت تحتاج إلى عين بصيرة يمكنها تمييز هذه المؤثرات الأجنبية والرواسب القديمة ومن صفاتها التهذيب أو البعد عن صدق تمثيل الطبيعة أو التحوير أو التبسيط فى رسوم الأشجار والنبات والجبال والعناصر الزخرفية، ومع هذا فإن الصور كانت تنبض بالحياة والحركة والواقعية، ولم يتبع المصور قواعد المنظور فى رسم موضوعاته، لكنه اتبع أسلوب الشفافية فى رسم العمائر، وقد اشتركت فى ذلك جميع مدارس التصوير الإسلامى، وقد وجد هذا التيار فى إيران قبل الإسلام وانتشر بعده، وهناك نسخة من مقامات الحريرى استطاع فنانها أن يتقن رسوم الجموع، وأن يعبر عن خلجات النفوس،

وأن يكون واقعيا فى تمثيله للمناظر.. ولحسن الحظ أننا نعرف اسم هذا المصور، وهو يحيى بن محمود الواسطى، وتاريخها يرجع إلى سنة ١٢٣٠ م. وهذه النسخة محفوظة فى المكتبة الوطنية فى باريس، وهناك نسخة أخرى من العهد المملوكى لمقامات الحريرى فى المكتبة الوطنية فى فينا، وهى من عمل أبى الفضل بن إسحاق، وصور محمد بن أحمد كليلة ودمنة المحفوظة فى أكسفورد.. لقد ازدهر التصوير الإسلامى فى الوطن العربى وفى إيران والهند وتركيا العثمانية. ويتناثر إنتاج المصورين المسلمين فى شتى أنحاء العالم، ومما لا شك فيه أنه كان له تأثيره على أوربا فى تلك العهود..

ويحدثنا الدكتور جمال محمد محرز فى «كتابه التصوير الإسلامى» ومدارسه بعد ذلك عن إعداد المصور، ويقول إن الفنون الإسلامية كانت أقرب إلى الحرف منها إلى الفنون؛ لذلك تتلمذ الأطفال على يد الصناع المهرة وكان المصور الإسلامى لا يرسم فقط، بل يحضر بنفسه أدواته كالفرشاة والألوان والأصباغ والورق المزخرف وكل ما هو فى حاجة إليه فى عمله الشاق. وقد استخدم الألوان المعدنية، والألوان النباتية وقد تفنن فى شكل الورق.. فكان الورق المرقط بالذهب، والرخامى، أو السحابى اللون.. وهو أنواع.. البسيط، والممشط، والمعقد، والمزمل وذو النقوش الكتابية والرسوم، وأخيرا المذهب.

ولم تكن مساحات الصورة فى المدرسة العربية محددة بإطار من الجهات الأربع إلا فيما ندر.. أما المدرسة الإيرانية فقد حددت مساحة

الصور تأثرا بالصين، واستخدمت المدرسة الهندية التصميم البيضى، ولم يتبع المصور الإسلامى قواعد المنظور، والمعروف أنها لم تتبع فى أوربا إلا ابتداء من عصر النهضة، ولم يكن ذلك عن جهل بها، ولكنه فضل استخدام منظور عين الطائر فى رسم العديد من موضوعاته، وهو حين يريد أن يرسم لنا ما يوجد داخل الحجرات، أو فى باطن الأرض أو فى قاع المياه ـ كانت وسيلته إلى ذلك عدم رسم جدران الحجرات أو عمل تجويف في سطح الأرض لنرى منه ما فى قاع الآبار.. وهكذا.. ومما هو جدير بالذكر أن رسوم بعض الأشخاص فى الفن البيزنطى قد تأثرت بالتصوير الإسلامى، إذ رسمت القدمان على النمط الإسلامى، كما تدلنا على ذلك بعض الرسوم وبعض صور محفوظة بالفاتيكان.

ويعرض كتاب التصوير الإسلامى ومدارسه إلى الرسوم الخاصة بالأشخاص وأقدم الرسوم الشخصية الإسلامية التى وصلت إلينا ترجع إلى القرن الرابع عشر الميلادى، وإن حفلت الكتب بذكر أمثلة كثيرة لرسوم شخصية، ونجد إشارات إلى رسوم من صناعة فنانين مسلمين أولها تلك التى تذكر أن صورة على بن أبى طالب كانت منقوشة على السيوف.. وقد تحدث عن هذه الرسوم كل من المسعودى فى «مروج الذهب» والمقريزى فى كتبه التاريخية المعروفة، واستطاع الفنانون الأوربيون رسم الصور الشخصية منذ القرن الثالث عشر وأن يتقنوها إتقانا عظيما، فى حين لم يستطع المسلمون ذلك إلا منذ القرن الخامس عشر.. وذلك تأثرا بما بقى فى نفوسهم من التعاليم الدينية. وتتنوع

الشخصيات المصورة تنوعا بَيِّناً: فمن صور سلاطين وحكام أقاليم، إلى رسوم أدباء وفنانين، إلى دراويش وأشخاص عاديين ورسوم نساء، إلى رسوم سفراء ورجال أوربيين. وبعضها يشهد بالإتقان والتفوق.

إن الفنان المسلم استطاع أن يرد بعض ما عليه من دين للحضارات السابقة فأثر فى الفنون التى عاصرته والتى لحقته، فأخذ منه الفنانون البيزنطيون والأوربيون بعض أساليبه فى التعبير وبعض طرائقه فى رسم وحدات المنظر، بل إن الفنان المسلم ساهم أكثر من ذلك فى حل بعض المشكلات التى كانت تعترض المصورين بأسلوب جديد لم يسبق إليه، ولم تكن المقدرة الفنية تنقصه، وقد شهد بذلك الأساتذة الأجانب وأشادوا ببعض رسومهم وقارنوها بإنتاج مشاهير الغرب..

إن د. جمال محمد محرز بكتابه «التصوير الإسلامى» يكشف لنا صفحة مطوية من ازدهار هذا الفن الذى يظن البعض أنه لم يكن له وجود، أو أن وجوده كان متواضعا.. كتابه يستحق أن يقرأ..

* * *

الفنون والتصوير

«تصوير وتجميل الكتب العربية فى الإسلام ونوابغ المصورين والرسامين من العرب فى العصور الإسلامية» ، كل هذا عنوان كتاب للأستاذ محمد عبد الجواد الأصمعى، كتب فى الستينيات، وصدر فى السبعينيات، ويحمل فى مستهله فتوى تجيز الرسم والتصوير الشمسى للإنسان والحيوان إذا كان لأغراض علمية..

كان هناك تساؤل مستمر: هل الفن حلال أو حرام؟.. ينقل المؤلف الأستاذ محمد عبد الجواد الأصمعى من صحفنا إجابة عملية عن التساؤل، وذلك حين افتتح الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر معرض رسوم طلبة وفتيات الأزهر، ويقدم الشاعر الكبير أحمد رامى للكتاب فيراه حافلا بالطُّرَف والأخبار، عامرا بالصور والآثار، جامعا لشتات ما ورد فى الكتب النادرة عن هذا الموضوع مع عرض لما أبدعه مصورو الإسلام فى شتى عهوده المتوالية.

وقد نبغ من العرب فى العصور الإسلامية عدد كبير فى التصوير والنقش والرسم.. وهناك مصورون على الخزف، وعلى الخشب،

وعلى النسيج، وعلى النحاس والحديد، وعلى الجدران، وهناك مصورون للكتب تفننوا في تحليتها.. وانتشر التصوير من القرن الأول الهجرى، وذكر المسعودى أنه كان في دار الخلافة العباسية في أيام المنتصر (٢٤٨ هـ) بساط عليه صور ملوك في جملتهم يزيد بن الوليد بن عبد الملك، بل في «مروج الذهب» قيل إن رحالة قرشيا كانت لديه صور الأنبياء.

وتقلب التصوير في الإسلام من الاقتباس والتقليد إلى الممارسة والابتكار في عصر العباسيين في العراق والطولونيين في مصر. وانتقل إلى طَوْر الرقى والإبداع في عصر الفاطميين بمصر، ويأتى بعد ذلك طور انحطاط ما بين القرن السابع والعاشر الهجرى. وحفظ لنا التاريخ الإسلامى وجود صور للأحياء على جدران المساجد بجانب تصوير القصور، كما في قصر خمارويه، وخليل بن قلاوون الذى أنشأ بالقلعة شرفة صور فيها أمراء الدولة وخواصها، وجعل عليها قبة على عمد وزخرفها.

وعرض الأستاذ الأصمعى في كتابه للكتب المصورة حسب اختلاف موضوعاتها، وبدأ بالكتب الطبية: صَوَّرَ رشيد الدين الصورى كتابه (الأدوية المفردة)، وصور حنين بن إسحاق كتابه (تركيب العين) وفيه يضع صوراً ملونة، وصورت كتب الجغرافيا، ومنها نزهة المشتاق للإدريسى، والمسالك والممالك لابن حوقل، وطبع مولر الألمانى كتاب الأقاليم للإصطخرى بصوره ورسومه وخرائطه، وطبع نخبة الدهر

للدمشقى فى بطرس بزج وباريس وكوبنهاجن.. وهناك كتب عسكرية مصورة ومرسومة عرض المؤلف لستة منها، قبل أن يتحدث عن الرسوم الهندسية والميكانيكية مثل كتاب (علم الساعات)، ونشر المستشرق الفرنسى (كارادى فو) كتابا اسمه الحيل الروحانية وميجانيقا الماء

وأقدم ما وصل إلينا مزوقا مصورا مجملا كتاب كليلة ودمنة، وفى مقدمته «قد ينبغى للناظر فى كتابنا هذا ألا تكون غايته التصفح لتزاويقه».. وهناك أجزاء مصورة من كتاب الأغانى، وكتاب الدر المنظم فى السر الأعظم.. وطبع كتاب عجائب المخلوقات للقزوينى فى ألمانيا بصوره القديمة، وترجم كتابه حياة الحيوان إلى معظم اللغات الحية، ونشرت مع الترجمة نفس الرسوم القديمة.. كما رسمت موسوعة «موسوعة الإبصار فى ملوك الأمصار». ويقول الأستاذ الأصمعى إن الصور الدينية كانت أبعد ما تكون عن أذهان المسلمين، غير أن هناك ثمانى صور خيالية منشورة فى كتاب «الميزات الكبرى» فى الفقه الشافعى للشعرانى، وهو مطبوع فى بولاق سنة ١٨٥٨ وفيه رسم للصراط والقباب.

وقد عنى المسلمون فى كتابة القرآن الكريم بأنواع الخطوط المختلفة، كما كتبوه على صفائح الذهب والفضة.. وعلى صفائح العاج وعلى الحرير والديباج.. ولدينا فى قاعة دار الكتب فى مصر مجموعة نفيسة من المصاحف الشريفة؛ لذلك يجدر بكل من يقلب بين يديه

كتابا إفرنجيا مصورا أو مزينا بالرسوم أن يتذكر أننا مبدعو هذا الفن وأننا زينا دواوين الشعر وكتب القصص والتاريخ، ودون تأثر بما علمه اليونانيون فقد كانت كل رسومهم توضيحية. وورد فى صبح الأعشى للقلقشندى الكثير عن صناعة الحبر والمداد، وأدوات الكتابة والرسم والتصوير.. ويأتى بعد ذلك فهرس لأسماء المصورين والرسامين والمزوقين والمزخرفين من العرب فى أزهى العصور الإسلامية..

ويعرض كتاب تصوير وتجميل الكتب العربية فى الإسلام مجموعة مبهرة من اللوحات، عددها خمس وخمسون لوحة.. أولاها تبين جواداً مع فارسه وهو يشد من عليه السرج.. وأخرى وهو يُعْطيه الدواء.. ونقف طويلا عند لوحة حنين بن إسحاق فى تركيب العين، ثم تتوالى خرائط جغرافية من بينها خريطة لمجرى النيل من كتاب مسالك الممالك، وعليها أسماء البلاد والمدن الواقعة على النيل.. وهى مرسومة فى القرن الثالث الهجرى.. وهناك صفحة من ديوان (يوسف وزليخا) مرسومة عام ١٤٩٢ ميلادية.. وصفحة من كتاب (بستان سعدى) وأخرى من كتاب (الشاهنامه).. وعدة صفحات مرسومة ومصورة من كتابى الأغانى للأصفهانى.. ونشر الكتاب مجموعة نادرة من صفحات من القرآن الشريف فى طبعات مختلفة بعضها محلاة بنقوش مغربية، وبعضها برسوم مصرية.. وهناك أيضا زخارف فارسية وأخرى تركية.. إنها بالغة الروعة والجمال، وفى الكتاب صفحة من رسوم كتاب كليلة ودمنة، ومختارات من الشعر الفارسى، وصورة

الحرمين الشريفين (المكى والمدنى) منقولة من كتاب (توفيق موفق الخيرات لنيل البركات من خدمة منبع السعادات) .

لقد أتقن العرب والمسلمون الزخرفة والنقش والتذهيب والتزميك، وغيرها من الفنون الجميلة التى مارسها العباقرة من الإسلاميين، وعنهم انتقلت إلى كل أرجاء الدنيا، والكثير منها محفوظ فى متاحف، وتأثرت أوربا والغرب بهؤلاء الفنانين الذين امتازوا بالقدرة على الإبداع والإتقان إلى درجة أنهم أصبحوا علامات فى تاريخ الحضارة الإسلامية والعالمية، شهدت بها كل الدنيا.



الفهـــرس





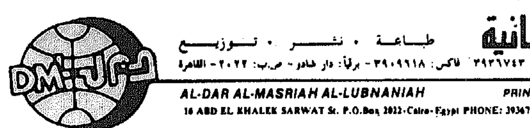
هــذا الكتــاب

فى العصر الحديث يواجه الإسلام والمسلمون هجمات شرسة وافتراءات عديدة من جانب بعض العلماء ورجال الإعلام من العالم الغربى . . وهى هجمات مغرضة تهدف أولاً وقبل كل شىء إلى جعل المسلمين يفقدون الثقة فى أنفسهم ، كما تهدف إلى التحريض على إرهاب العالم الإسلامى والإيقاع به تحت سيطرتهم المقيتة .

وبالرغم من هذه الافتراءات المغرضة ، فقدقدر الله سبحانه وتعالى أن يضيىء بصيرة الكثيرين من علماء الغرب المنصفين الذين أدركوا ما فى الإسلام من قيم رفيعة وأقروا ينبوع العلماء المسلمين فى علوم كثيرة كالطب والفلك والجبر والهندسة والعلوم الرياضية بصفة عامة . كما أقروا بفضل العرب والمسلمين على الحضارة الغربية والحضارة العالمية .

وفى هذا الكتاب يأخذنا المؤلف فى سياحة ثقافية نتجول فيها داخل الانتاجات الفكرية والثقافية والعلمية التى كتبها علماء من الغرب وعلماء من العرب والمسلمين ، يعترفون فيها بفضل الإسلام والمسلمين على حضارة الإنسان .

« الناشــر »



الدار المصرية اللبنانية طبـاعـة • نشــر • تــوزيــع

١٦ شارع عبد الخالق ثروت - تليفون ٣٩٢٣٥٢٥ ٣٩٣٦٧٤٣ فاكس: ٣٩٠٩٦١٨ - برقياً: دار شادو - ص.ب: ٢٠٢٢ - القاهرة

AL-DAR AL-MASRIAH AL-LUBNANIAH PRINTING — PUBLISHING — DISTRIBUTION

16 ABD EL KHALEK SARWAT St. P.O.Box 2022-Cairo-Egypt PHONE: 3936743-3923525 FAX: 3909618 CABLE DARSHADO